من كتاب المختصر في أخبار البشر لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزيك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل ابو الغارات طلائع ابن رزيك الأرمني ، وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ، ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك، وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها، وسأل العاضد أن يولي ابنه رزيك الوزارة ، ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك في الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك فولاه الصعيد، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل ان لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور. ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل وطرد وراء شاور وأمسكه وقتله، وهو العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، وانقرضت بقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن الضرغام جمع جمعا، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور، فانهزم شاور إلى

الشام مستنجدا بنـور الدين، ولما تمكن الضرغام من الـوزارةقتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلـو له البـلاد، فضعفت الـدولة بهذا السبـب، حتى خرجت البلاد من أيديهم

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

وفي هذه السنة سير نور الـدين محمود بن زنكي عسكرا مقـدمهم أسد الدين شيركوه بـن شاذي الى الديار المصرية ومعهم شـاور، وكان قد سار من مصر هاربا مـن الضرغام الوزير فلحق شاور بنـور الدين واستنجده، وبـذل لـه ثلث أمـوال مصر بعـد رزق جنـدها . إن أعـاده إلى الـوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر، فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاور إلى وزارة العاضـد العلوي، ثم غدر شاور بنور الديـن ولم يف له بشيء مما شرط، فسار شيركـوه واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسـل شاور استنجد الافرنـج على إخراج أسد الديـن شيركوه مـن البلاد، فسـار الافـرنج واجتمـع معهـم شاوربعسكـر مصر، وحصروا شيركـوه ببلبيس، ودام الحصـار ثـلاثة أشهـر وبلـغ الأفرنـج حـركة نـور الديـن، وأخذه حارم، فـراسلوا شيركوه في الصلـح وفتحوا له فخـرج من بلبيس بمن معه من العسكر، وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين.

وفي هذه السنـة في رمضان فتح نـور الدين محمـود حارم وأخذهـا من الأفرنج بعد مصاف جرى بين نور الديـن والأفرنج انتصر فيه نور الدين، وقتل وأسر عـالما كثيرا، وكان من جملة الأسرى البرنـس صاحب انطـاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفي هذه السنة أيضا في ذي الحجة سار نـور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الأفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة

وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الأفرنج

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الأفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا في إثر شيركوه الى جهة الصعيد، والتقوا على بلد يقال له البابين، فانهزم الأفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الاسكندرية ويعود إلى الشام، فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الأفرنج والمصريين على ان يكون للافرنج بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

وفي هذه السنة فتح نور الدين صافيتا والعريمة،وفيها عصى غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه عسكرا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

.وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحبها وأحضروه إلى نور الدين، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل، فأرسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية، وكان رضيع نور الدين، وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء، وما زالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الأفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهرا في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها، وقتلوا أهلها وأسروهم ، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الأفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما، فأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الأفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله، فرحلوا، وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه، وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته. وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم)(البقرة ٢١٦)ولما قارب شيركوه مصر رحل الأفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم، فكان هذا لمصر فتحا جديدا ، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالقلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وايراد ثلث البلاد، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)(النساء ١٢٠)، ثم ان شاور عزم على ان يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعي، وساروا جميعا إلى شيركوه فوثب صلاح الد ين وجرديك على شاور وألقياه إلى الأرض عن فرسه، وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلاه، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك، وسمع العاضد الخبر فأرسل إلى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور، فقتله وأرسل إلى العاضد، ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وكتب له منشورا، أوله بعد البسملة : «من عبد الله ووليه أبي محمد الإمام

العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين، وأمتع الله بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك.

إنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين، والأئمة المهديين ويسلم تسليما»ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه، ووصايا أضربنا عنها للإختصار، وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور: « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك الى النبوة»

ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المدى في العلا ما حزت بالخبب
ملكت من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت اسد الدين العزيمة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

في شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

هـو الأسـد الضـاري الـذي جـل خطبـه
وشـاور كلـب للـرجـال عقـور
بغـى وطغـى حتـى لقـد قـال صحبـه
على مثلهـا كـان اللعين يـدور
فـلا رحـم الـرحمن تـربـة قبره .
ولازال فيـه منكـر ونكير

أما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر، فكان آخر العهد به .

ولما لم يبق لأسـد الدين شيركوه منـازع أتاه أجله (حتى اذا فـرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) (الأنعام ٤٤)وتـوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربـع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهـرين وخمسة أيام ، وكان شيركوه وأيوب ابنا شادي من بلد دوين .

قال ابن الأثير وأصلهما من الأكراد الروادية، فقصدا العراق، وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه، فجعله بهروز مستحفظـا قلعة تكريت ولما انكسـر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ، ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه، ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت، فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عمـاد الدين زنكي وأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جميلة ، ولما ملك قلعـة بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على إقطاعـات كثيرة شرطـوها له، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والـرحبة لمـا رأى من شجاعته وزاده عليها، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخـاه أيوب، فساعـد أيوب نـور الديـن على

ملك دمشق، وبقيا مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرنا

ولما توفي شيركوه،وكان معه صلاح الدين يوسف ابن اخيه أيوب بن شادي، وكان قد سار معه على كره. قال صلاح الدين أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه بحضرته : يا يوسف تجهز للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا أنساه أبدا، فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقيل، فقال نور الدين لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما أساق إلى الموت.

ولما مات شيركوه طلب جماعة من من الأمراء النورية التقدم على العسكر، وولاية الوزاره العاضدية، منهم : عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، فأرسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، فلم يطعه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري، فسعى إلى المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن اختك، وعزه وملكه لك فمال إليه أيضا، ثم فعل بالباقين كذلك، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبتت قدم صلاح الدين على انه نائب نور الدين، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله،

فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر،

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله، فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، وتمكن من البلاد، وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى.

قال ابن الأثير مؤلف كتاب الكامل : رأيت كثيرا ممن ابتدأ الملك ينتقل إلى غير عقبة ، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس، فانتقل الملك إلى عقب أخيه المنصور، ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن أحمد، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبة، ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغريل السلجوقي فانتقل ملكه إلى عقب أخيه ، ثم شيركوه ملك فانتقل الملك إلى ابن أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب، وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولا، وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان، فاجتمعت السودان، فهم حفاظ القصر، في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين، انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلا وتهجيجا، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها سارت الأفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمة، فحصروها خمسين يوما، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها. قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مدة إقامة الأفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها .

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه. وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين في عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الافرنج، فخافوا من نور الدين، واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خربت من بلادهم

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود إلى أخيه الذي هو أصغر منه، وهو سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصرا به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبا، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا، وكان من أحسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين

سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل وهي بيد أخيه غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر، فاستولى عليها نور الدين وملكها، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها، وأطلق المكوس منها، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي، وأعطى سنجار لعماد الدين وهو

أكبر من أخيه، فقال كمال الدين الشهرزوري: هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء.

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من مصر فغزا بلاد الأفرنج قرب عسقلان والرملة، وعاد إلى مصر، ثم خرج إلى إيلة وحصرها، وهي للأفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها، وعاد إلى مصر .

ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وكذلك دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة ورتب قضاة شافعية، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة، وكذلك اشترى تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين منازل العز، وبناها مدرسة للشافعية

ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي وكان خصيا أبيض، وبلغ نور الدين ذلك أرسل إلى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم

يلتفت نـور الديـن إلى ذلك، وأصر عليه وكـان العاضد قـد مرض فـأمر صـلاح الديـن الخطباء أن يخطبـوا للمستضيء، ويقطعوا خطبـة العاضـد فامتثلوا ذلك، ولم ينتطـح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتـد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، وتـوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته

ولما تـوفي العـاضد جلـس صـلاح الـدين للعـزاء، واستـولى على قصر الخلافة وعلى جميـع ما فيه، وكـانت كثرتـه تخرج عن الاحصاء، وكـان فيه أشياء نفيسـة من الأعـلاق الثمينة والكتـب والتحف، فمـن ذلك الجبـل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا

قال ابن الأثير مـؤلف الكامل : أنـا رأيته ووزنته، ومما حكـي أنه كان بالقصر طبـل للقولنـج إذا ضرب الانسان بـه ضرط فكسر، ولم يعلموا بـه إلا بعد ذلـك،ونقل صـلاح الدين أهـل العاضـد إلى موضـع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم وأخـرج جميع من فيه من عبد وأمـة فباع البعض، وأعتق البعـض، وذهب البعض، وخلا القصر مـن سكانه، وكـأن لم يغن بالأمس.

ولما إشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الـدين يستدعيه، فظن ذلك خديعـة ولم يمض إليه، فلما تـوفي علم صدقـه فندم لتخلفه عنـه، وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة: المهدي، والقائم ،والمنصور،والمعز، والعـزيـز، والحاكـم، والظـاهـر، والمستنصر، والمستعلي، والآمـر، والحافـظ، والظافر، والفـائز، والعاضد، وجميع مـدة خلافتهم من حين ظهـر المهدي بسلجماسة في ذي الحجة سنـة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العـاضد في هذه السنـة أعني سنـة سبع وستين وخمسمائة مـائتان واثنتـان وسبعون سنة تقـريبا، وهذا دأب الدنيـا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت. ولم تصف إلا وتكدرت. بل صفوها لم يخل من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد المذكور قد رأى في منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد، ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعى من يعبر الرؤيا وقص ما رآه عليه، فعبر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد الى والي مصر باحضار من بذلك المسجد، فأحضر إليه شخصا صوفيا يقال له نجم الدين الخبوشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه، وسبب مقامه بالمسجد المذكور، فخبره بالصحيح في ذلك، ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه، فوصله بمال وقال له: ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في ذلك ، فصحت بذلك رؤيا العاضد .

وفي هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في الباطن: كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للأفرنج ثم رحل عنها خوفا أن يأخذه فلا يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا فما الرأي ؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك، وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل اكتب وقل لنور الدين إنه لو جاءني من عندك انسان واحد، وربط المنديل في عنقي وجرني إليك سارعت إلى ذلك، وانفضوا

على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال له: لوقصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله،، ولكن إن أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

وفي هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية، ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة، ثم فتحها واستولى عليها، وملك كثيرا من بلاد إفريقية.

وفيها سار نور الدين إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واستولى على مرعش وبهسنا ومرزبان وسيواس فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذي النون بن الداشمند، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس، فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الداشمند

وفيها سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين، فرحل عن الكرك عائدا إلى مصر، وأرسل تحفا إلى نور الدين واعتذر بأن أباه أيوب مريض وخشي أن يموت، فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود.

ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه أيوب قد مات، وكان

سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور، أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل إلى قصره، وبقي أياما ، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجةمن هذه السنة، وكان عاقلا حسن السيرة

ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها، ثم سيره في هذه السنةبعسكر إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينذاك انسانا يسمى عبد النبي، المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه، وهزم عبد النبي، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال توران شاه ، فهجم عدن وملكها وأسر ناشر أيضا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن.

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخر هم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس. وداعي الدعاة. وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه، وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله

قصيدة منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
جدعت مارنك الأقنى فانفك لا
ينفك مأبون أهل الشين والخجل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الشام، وديار الجزيرة، وغير ذلك يوم الأربعاء، حادي عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة،وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الأفرنج، ويسير هو بنفسه إلى مصر، فأتاه أمر الله الذي لامرد له، وكان نور الدين أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه حسن الصورة، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق ذكره الأرض وحسن سيرته وعدله، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي كثيرا من الليل فكان كما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام، منها: دمشق، وحمص،وحماة،وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلزال، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده، وعمره احدى عشرة سنة، وحلف له العسكر بدمشق، وأقام بها، وأطاعه صلاح الدين بمصر،وخطب له بها، وضربت السكة باسمه، وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد، المعروف بابن المقدم.

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح، سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وملك جميع البلاد الجزرية.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد، يقال له الكنز، جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرا فاقتتلواوقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين بن أيوب: دمشق، وحمص، وحماة،وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته، وهو رئيس حلب،واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا صلاح الدين، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في

سبعمائة فارس، ولم يلبث أن وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستمالته، فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال.

ولما ثبت قدمه، وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة، وقلعة بارين، وسلمية وتل خالد، والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين ابن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فلأن قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين فإن قلعتها كانت له أيضا، ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض إلا حفظ الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة، فاستحلفه جرديك على ذلك، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب إلى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الأفرنج على حمص، ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار

إلى حمص، فرحل الأفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة، ثم سار إلى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضا، فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب، وانضم إليهم عسكر حلب، وسار إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن يقر بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله واقتتلواعند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الأخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية.

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة

وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان، فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين . وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوبا، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع، فثبته وزيره، وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم، وغنم ما فيها، وسار الى بزاعه وحصرها وتسلمها، ثم سار الى منبج فحصرها في آخر شوال، وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة، وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه، فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب الإسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه،فأمسك صلاح الدين الإسماعيلي، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضا، ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم، ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح، وانقضت هذه السنة، وهو محاصر لحلب، فسألوه في الصلح فأجابهم إليه، وأخرجوا إليه بنتا صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئا كثيرا وقال لها :ما ترومين؟ فقالت : اريد قلعة عزاز، وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان

إليهم، واستقر الصلح، ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف، فأرسل مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله أن يسعى في الصلح فسأله الحارمي الصفح عنهم فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل الى مصر فإنه كان بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم،

ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة بمصر، وعمل بالقاهرة مارستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وفي جمادى الأولى منها سار السلطان من مصر إلى الساحل لغزو الأفرنج، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالأفرنج قد طلعت عليه، فقاتلهم أشد قتال، وكان لتقي الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب، أول ما تكاملت لحيته،

فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثرا كبيرا، وعاد سالما، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الأفرنج السلطان فمضى منهزما إلى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديدا، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الأفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى، وأسر الفقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال الشيخ عز الدين علي بن الأثير، مؤلف الكامل: رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق، يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه: « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى»

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الأولى، وطمع الأفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الأفرنج، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك في اللذات، مائلا إلى الراحات، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض، واشتد حصار الأفرنج لحماة، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الأفرنج إلى ظاهر السور، وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام.

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين، وكان قد تغلب على الأمر، وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات من العذاب، وأصر أصحابه على الامتناع، ووصل الأفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصرواحارم مدة أربعة أشهر، فأرسل الملك الصالح مالا للأفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وقد بلغ أهلها الجهد، وبعد أن رحل الأفرنج عنها أرسل الملك الصالح إليها واستناب بقلعة حارم مملوكا لأبيه اسمه سرخك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك، وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك، وطال حصارها، فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض، فعوض عنها وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد، وفيها سير السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر إلى حماة، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص، وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل منهما ببلده.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الأفرنج عند مخاضة الأحزان

بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب، وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، فطمع فيه قليج وأرسل إليه عسكرا ليحصروه، وكانوا قريب عشرين ألفا وسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان تقي الدين يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفا

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وأمه أم ولد أرمينية، وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما، وكان حسن السيرة، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار، بعد عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار، وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين أبو الفضل، وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار، ونقل إلى التاج، وأخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة ، فثارت به العامة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست تلك المغرفة في العذرة، ويقولون: وقع لنا يا مولانا،هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك، فطلب عوضها الإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار إليها فرخشاه وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية، وكان مرضه السل وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة، لايدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغارا، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز.

وفي هذه السنة سار السلطان إلى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها .

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتي ألف دينار مصرية، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل مصر في هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للإستيلاء على تلك النواحي الشرقية، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز إليه عسكرا مع جماعة من أمرائه فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه، وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر.

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله، وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان، ملازما لأمور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب واستقر في ملكها، ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار، فأشار قيماز بذلك

فلم يمكن مسعود إلا موافقته فأجاب إلى ذلك، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتكدر المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الأفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة، ولما سار صلاح الدين إلى الشام اجتمعت الأفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على ما يجاوره من بلاد الأفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك

ذكر إرسال سيف الاسلام إلى اليمن

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز

الـدين عثمان الـزنجيلي قـد عادا إلى ولايتهـا فـإن الأمير الذي كـان سيره السلطان نـائبا إلى اليمـن تولى وعـزلهما، فعادت بين حطـان وعثمان الفتن قائمـة، فوصل سيف الإسـلام إلى زبيد فتحصن حطان في بعـض القلاع فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتـى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطـان طلب دستـورا إلى الشام فلـم يجبـه إلا بعد جهـد، فجهز حطـان أثقالـه قدامـه ودخل حطـان ليودع سيـف الإسلام فقبـض عليه وأرسـل فـاسترجع أثقـالـه، وأخذ جميـع أموالـه، وكـان من جملـة مـا أخذ سيـف الإسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبـا عينا، ثم سجن حطان في بعض قـلاع اليمن فكـان آخـر العهد بـه، فـأما عثمان الـزنجيلي فـإنه لما جـرى لحطان ذلـك خاف وسار نحـو الشام، وسير أمـواله في البحر فصـادفهم مركب فيهـا أصحاب سيف الإسلام فـأخذوا كل مالعثمان، وصفـت بلاد اليمن لسيف الإسلام.

ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الأول ونزل قريب طبرية، وشن الغارات على بلاد الأفرنج مثل بانياس وجينين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها،ثم عاد إلى دمشق، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان ملوك تلك الأطراف واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه، ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذ صاحبها قطب الدين ينال بن حسان، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسياء وماكسين وعربان والخابور واستولى على خابور جميعة، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة، ثم أقطع نصيبين أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين، وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذاة باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم، وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين

ذكر غير من الحوادث

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين في تلك النواحي فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان، فعمر أسطولا في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفرا شجاعا، فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى، فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعا كريما فاضلا وله شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور،

وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي، ولد سنة خمس وخمسمائة، وهو الملقب قطب الدين، وكان إماما فاضلا في العلوم الدينية، قدم إلى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين، وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار.

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من محرم، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داوود بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عينتاب إلى اسماعيل المذكور فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان، ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي، وطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب عليه ، وقد ضجر من ذلك، وكره حلب لذلك، فأجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر من هذه السنة، فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور:« يا حمار، بعت حلب بسنجار.» واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه، ولا يحتج بحجة عن ذلك، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي، قاضي دمشق، مدح السلطان بقصيدة منها:

بشرتكم حلب بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري بن أيوب أخو

السلطان الأصغر وكان كريما شجاعا طعن في ركبته فانفلقت فمات منها.

ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم في سرورهم إذ جاءهم إنسان فأسر إلى السلطان بموت أخيه بوري فوجد عليه في قلبه وجدا عظيما وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان يقول السلطان: ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح في تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الأفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى السلطان، فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها، وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان بن جندر

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة قبض عز الدين بن مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز.

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة فأغار على بيسان وحرقها وشن الغارات على تلك النواحي، ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكرك، فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليه، ثم رحل عنها في منتصف شعبان، وسار معه أخوه، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائبا عنه موضع الملك

العادل، ووصل السلطان إلى دمشق،وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره إليها في شهر رمضان من هذه السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاه أرمن سكمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط، وقد تقدم ذكر ملك شاه أرمن المذكور في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وكان عمر سكمان لما توفي أربعا وستين سنة، ولما مات سكمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين، فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط وكان أكثر أهلها ومماليك شاه أرمن متفقين معه، وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاه أرمن واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وخمسمائة حسبما نذكر ان شاء الله تعالى.

ذكر غزو السلطان الكرك

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة، وكتب إلى مصر، فسارعت عساكرها إليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به وملك ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق عميق وقصد السلطان طمه، فلم يقدر لكثرة المقاتلة، فجمعت الأفرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان إلا الرحيل فرحل عن الكرك وسار إليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الأفرنج جماعة ودخلوا الكرك، فعلم بامتناعه عليه وسار إلى نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر، ثم نزل إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين ثم عاد إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعيد أحمد، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق، وطلبا المسير إلى العراق، وسارا في الحر فمات بشير في السخنة، ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس، وأحسن إليه.

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة

وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساءوجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لا سيما وفيهن بنت نور الدين، وحاصر الموصل وضايقها، وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخرمن هذه السنة، فسار عن الموصل إلى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها.

وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده سكمان، ولقب قطب الدين، وكان صغيرا، فقام بتدبيره القوام ابن سماق الأسعردي، وأحضر سكمان إلى السلطان وهو نازل على ميافارقين فأقره على ما كان بيد والده، وأقام معه أميرا من أصحاب سكمان المذكور.

- ١٠١٢٧ -

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين

لما رحل ا لسلطان عن الموصل جعل طريقه على ميافارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفى، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى، ثم إن السلطان رجع عن قصد خلاط إلى الموصل فجاءته رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح، واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدا إلى حران، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان : شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ما وراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وما بيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضا واشتد به المرض حتى أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم. ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركو ه بن شاذي صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان.

وفي هذه السنة ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتا، قيل إن السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشر سنة، وخلف صاحب حمص شيئا كثيرا من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه .

ذكر نقل الملك العادل من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

وفيها أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر، وأقطعه دمشق، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب عمه بمصر، وكان معه الملك الأفضل، فأرسل تقي الدين يشتكي من الأفضل إنني لا أتمكن من استخراج الخراج، فإنني إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأرسل السلطان أخرج ابنه الأفضل من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر إذا مات السلطان، ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيزعثمان بن السلطان نائبا عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من مصر فقيل إنه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر، ولما حضر تقي الدين إلى السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

وفي هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن الدكز صاحب بلد الجبل، وهمذان، والري، وأصفهان، وأذربيجان، وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه

عثمان، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله خطبة في بلاده، وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم، فأرسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده.

ذكر غزوات السلطان وفتوحاته

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وفيها جمع السلطان العساكر، وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية، وغنموا شيئا كثيرا.

ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته فأرسلت الأفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه، فصار معهم واجتمع الأفرنج للقاء السلطان.

ذكر وقعة حطين وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الأفرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان، فركب السلطان من عند طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقي الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليهم ونجا القومص ووصل طرابلس، وبقي مدة يسيرة ومات غبنا، ونصر الله تعالى المسلمين، وأحدقوا بالأفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسرا، وكان من جملة من أسر ملك الأفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية ،وما أصيب الأفرنج منذ خرجوا إلى الشام في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته، وأحضر ملك الأفرنج، وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا، فسقى ملك الأفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الأفرنج، فسكن جاشه، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان، ثم أرسل إلى أخيه العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلاثا والفولة غيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا، وأسروا أهل هذه الأماكن، وأرسل فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان، ثم سار الملك العادل بعد فتح

مجدل يابا إلى يافا وفتحها عنوة بالسيف ثم سار السلطان إلى تبنين ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم سار إلى بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان وكان حصرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى، فبذل جبيل بأن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك، وكان صاحب جبيل من أعظم الأفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تكن عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين، ولم يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهوا، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا يقترح أمرا بعدأمر، والملك الأفضل يجيب إلى ذلك المركيس إلى أن هب الهواء،فأقلع المركيس إلى صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الأفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وحملهم إلى صور من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى زاحت عكا، وقوي الأفرنج بذلك.

ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك.

ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر، وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال، ونقبوا السور، وطلب الأفرنج الأمان فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، وقال لآخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الأفرنج من المسلمين، فعاودوه في الأمان، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك القتال، فأجابهم السلطان إلى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال

عشرة دنانير، وتؤدي النساء خمسة، ويؤدوا عن كل طفل دينارين، وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا، فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك، ولم يحملوا إلا القليل.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه، فسمع لذلك ضجة لم بعهد مثلها من الأفرنج بالتفجع والتوجع، وكان الأفرنج قد عملوا غربي المسجد الأقصى هريا ومستراحا، فأمر السلطان بإزالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه، وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبرا بحلب تعب عليه مدة،وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الأقصى، وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعوية.

ثم رحل السلطان إلى عكا ورحل منها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها، ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوال، فاتفق أن الأفرنج كبسوهم في الشواني، وأخذوا خمس شوان، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال، أول كانون الأول، وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقته وأرسل إلى هونين وفتحها بالأمان

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجا، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين، فقتل بينهم جماعة، وابن المقدم بمنع أصحابه من القتال، فجرح ومات شهيدا، ودفن بمقبرة المعلى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فشتى السلطان في هذه السنة بعكا، ثم سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أميرا يقال له قايماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام، وسار من دمشق منتصف ربيع الأول، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد وشن الغارات على بلاد الأفرنج، وسار من حصن الأكراد، فنزل على انطرسوس فوجد الأفرنج قد أخذوا أنطرسوس فسار إلى مرقية، فوجدهم قد أخلوها أيضا، فسار تحت المرقب وهو للاسبتارية فوجده لا يرام ولا لأحد فيه مطمع، فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى وتسلمها حالة وصوله، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان فحصر القلعتين، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها إلى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع

والغرامة عليها، كما فعل بقلعة حماة، ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون فحاصرها وضايقها، وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنس وكان الأفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه، وملكوا حصن العيد، وحصن الجماهريين، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة وضايقها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى آثره، وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة، ثم سار السلطان من الشغر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها.

قال مؤلف الكامل ابن الأثير: كنت مع السلطان في مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر، ثم سار إلى دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج منها أحد إلا بثيابه فقط، وتسلمها تاسع عشر رجب، ثم سار عن دربساك إلى بغراس فحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح، وبذل اطلاق كل أسير عنده، فأجابه السلطان إلى ذلك

واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الأفرنج في هذه البلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس.

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة، سار إلى حلب ثالث شعبان، وسار منها إلى دمشق وأعطى عماد الدين زنكي دستورا، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقيما هناك، وكان من عباد الله تعالى الصالحين، وله كرامات ظاهرة، وكان مع السلطان أبو فليتة الأمير قاسم بن مهنا الحسني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهد معه مشاهده وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله، ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير والأجل غير مأمون، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها، وخلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد .

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان إلى صفد فحصرها في ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين، ظهر ذلك فيما بعد، ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام فيها حتى انسلخت السنة .

وفي هذه السنة أرسل قزل بن الدكز يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقي، ويحذره عاقبة أمره،

فأرسل الخليفة عسكرا إلى طغريل والتقوا ثامن ربيع الأول قرب همذان، فانهزم عسكر الخليفة، وغنم طغريل أموالهم، وأسر مقدم العسكر جلال ابن عبد الله وزير الخليفة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون وبذل له تسلم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان اسم صاحب الشقيف أرناط ، فقال له السلطان في التسليم فقال: لا يوافقني عليه أهلي، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق، فحبس

ذكر حصار الأفرنج عكا

كان قد اجتمع بصورأهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثر جمعهم حتى صاروا في عالم لاتحصى كثرته، وأرسلوا الى البحر يبكون ويستنجدون، وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد ادماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الأفرنج في البحر عالم لايحصون كثرة، وساروا الى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة، وضايقوا عكا واحاطوا بسورها من البحر الى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار اليهم السلطان ونزل قريب الافرنج وقاتلهم في مستهل شعبان، وباتوا على ذلك واصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة من ميمنة السلطان على الأفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور، وانفتح الطريق الى المدينة يدخل المسلمون ويخرجون، وأدخل السلطان الى عكا عسكر نجدة، وكان من جملتهم ابو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونه الى العشرين من شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم موقعة عظيمة، فإن الأفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان

مصاف، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى أن بلغوا خيمة السلطان، وانحاز السلطان الى جانب وانضاف اليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة، فحمل السلطان على الأفرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان قتلى الافرنج نحو عشرة آلاف نفس، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية وبعضهم وصل الى دمشق.

وجافت الارض بعد هذه الوقعة، ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج، فأشار عليه الامراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل الى عكا رابع عشر شهر رمضان الى الخروبة، فلما رحل تمكن الافرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض، وفي تلك الحال وصل اسطول المسلمين من البحر مع حسام الدين لؤلؤ ـ وكان شهماً ـ فظفر ببطسة للافرنج فأخذها ودخل بها الى عكا، فقويت قلوب المسلمين، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الى أخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصوله.

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها توفي بالخروبة الفقيه عيسى، وكان مع السلطان، وهو من أعيان عسكره، وكان جنديا فقيها شجاعا، وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزي.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد إلى قتال الأفرنج على عكا، وكان الأفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا، جاؤوا بخشبها من جزائر البحر، وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة، وألبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها

النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة، ووصلت إلى السلطان العساكر من البلاد .

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الأفرنج الذين على عكا غير قدر ألف مقاتل، وكفى الله المسلمين شرهم، وبقي السلطان والأفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة،فخرجت الأفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل، وأزالوا الملك العادل عن موضعه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا ممن الأفرنج خلقا كثيرا، فعادوا إلى خنادقهم،وحصل للسلطان مغص فانقطع في خيمته، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن إذا أراد الله أمرافلا مرد له

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء، واشتدت الرياح أرسل الأفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفا عليها أن تنكسر، وانفتح الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البدل إليها، وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك لضعف البدل.

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما توفي أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك

وأضاف إليه شهر زور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين، وهو حران والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين، وهو: حران والرها، وسمسياط والموزر، الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده، وهو: ميافارقين، ومن الشام حماة، والمعرة، وسلمية ومنبج، وقلعة نجم، وجبلة، واللاذقية، وبلاطنس وبكسرائيل.

obeikandl.com

- ١٠١٤٠ -

ذكر استيلاء الأفرنج على عكا

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

واستمر حصار الأفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا، وهم كالمحصورين، من خارجهم من السلطان، واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الأمان من الأفرنج على مال وأسرى يقومون بها للأفرنج، فأجابوهم إلى ذلك وصعدت أعلام الأفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، واستولوا على البلد بما فيه، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال، والأسرى،وصليب الصلبوت، وكتبوا إلى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك، فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين، ثم قتل الأفرنج منهم جماعة كثيرة، واستمر الباقون في الأسر.

وبعد استيلاء الأفرنج على عكا وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية،والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقا كثيرا، ثم سار الأفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون، فملكوها.

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة، لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقليع أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض، ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان، رحل

ثاني شهر رمضان إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد، ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان، ثم تراسل الأفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الأنكتار، ويكون للملك العادل القدس ، ولامرأته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الأفرنج من يافا إلى الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات، فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال بينهم، فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر، فكان يجتمع عند العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملك المظفر قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه،واستولى على السويداء وحاني، والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونازل ملا زكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفي به يوم الجمعة لإحدى عشر ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة، وأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد ووصل إلى حماة ودفنه بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة، مشهورة هناك،

وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت

الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وله شعر حسن، واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين محمد بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطا نسبه السلطان فيها الى العصيان، وكاد أمره يضمحل بالكلية، فراسل الملك المنصور عنه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماة، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل، بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ماله من الأقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس، ولما استقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، أعني سنة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة العسكر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن الدكز، وهو الذي ملك: أذربيجان، وهمذان، وأصفهان، والري بعد أخيه محمد ابن البهلوان، وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره، ثم إن قزل أرسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان

وتعصب على الشفعوية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان ملتجئا فأكرمه السلطان، وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة.

قال ابن الأثير: لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه، ترجل معز الدين، وترجل السلطان، ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان أيضا، فقال بعض الحاضرين في نفسه : ما بقيت تبالي يا بن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي ، ويصلح قماشك ابن أتابك زنكي .

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوسا، أمر بخنقة الملك الظاهر غازي، بأمر والده السلطان، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين، ثم سافر إلى حلب وكان علمه أكبر من عقلة، فنسب إلى انحلال العقيدة، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه، واشتهر عنه، وكان أشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل.

حكى الشيخ سيف الدين الآمدي قال: اجتمعت بالسهرودي في

حلب فقال لي: لابد أن أملك الأرض، فقلت: من أين لك هذا؟قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل ذلك يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل، وكان عمره لما قتل ثمان وثلاثين سنة وله عدة مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات، وكتاب الهياكل، وحكمة الإشراق، وكان يزعم أنه يعرف السيمياء، وله نظم حسن.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

وفيها سار الأفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها في محرم، والسلطان بالقدس، وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

ذكر عقد الهدنة مع الأفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الأنكتار مرض، وطال عليه البيكار، فكتب إلى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى ذلك، ثم اتفق رأي السلطان على ذلك لطول البيكار، وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فأجاب السلطان إلى ذلك، واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الأنكتار، بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين، وأخذوا يد السلطان، واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر، والملك المنصور، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه بن

فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت الهدنة عامة في البحر والبر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأن تكون عسقلان خرابا، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الأفرنج دخول صاحب أنطاكية، وطرابلس في عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك.

ثم رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله بتسديد أسواره، وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يتملك الأفرنج القدس، ثم لما ملك الأفرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد.

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب عسقلان، وأمر أن يخرج من بها من الأفرنج، وعزم على الحج والإحرام من القدس، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك، ثم ثبطه الأمراء، وقالوا لا تعتمد على هدنة الأفرنج خوفا من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك.

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس،

ثم إلى بيسان،ثم إلى كوكب، فبات بقلعتها، ثم رحل إلى طبرية، ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الأفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم سار منها إلى مصر.

ثم سار السلطان إلى بيروت ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال، فأكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين، وأقام العدل والإحسان بدمشق، وأعطى السلطان العساكر الدستور، فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لا لقاء بعده وسار إلى حلب، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الأفضل والقاضي الفاضل،وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد إلى دمشق طالبا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين، فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان للقائه، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الأمير سيف الدين المشطوب بنابلس، وكانت إقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد ابن المشطوب وأميرين معه.

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، في منتصف شعبان توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة، وعدل وافر

وغزوات كثيرة، وكان لـه عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطـرامن بلاد الروم، وأكبرهم قطب الـدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكـور، وكان قد أعطاه أبـوه سيواس ،فسولت له نفسه القبـض على أبيه وأخوتـه والانفراد بـالسلطنة، وسـاعده على ذلـك صاحـب أرزنكـان، فسار قطـب الديـن ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية، وقال لوالده وهو في قبضته: أنـا بين يديك أنفـذ أوامرك، ثم إنه أشهـد على والده بأنـه جعله ولي عهـده، ثم سـار إلى حرب أخيـه نور الـديـن سلطان شـاه صاحـب قيساريـة، ووالده في القبضـة معه وهـو يظهر أن مـا يفعله إنما هـو بأمـر والده، فخرج عسكـر قيسارية لحربه فوجـد أبوه عز الديـن قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصـة فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكـرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطـب الدين ملكشاه إ لى قونيـة وخطب لنفسه بـالسلطنة وبقي أبـوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحـد ينتقل إلى الآخر حتى حصـل عند ولده غياث الـدين كيخسرو بن قليج أرسـلان صاحب برغلو، فقوىّ أبـاه قليج وأعطاه وجمع له وحشد،وسار معـه إلى قونية فملكها وأخذها مـن ملكشاه، ثم سار إلى اقصرا، واتفـق أن عـز الديـن قليـج أرسـلان مـرض ومات في التـاريـخ المذكور، فأخـذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قـونية فدفنه بها، واتفـق موت ملكشاه بعد موت أبيـه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونيـة وأثبت أنه ولي عهد أبيه، ثم إن ركن الديـن سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخـذ منه قونية، فهـرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهـر صاحب حلب، ثم مات ركـن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بـن سليمان، فرجع كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك ابـن سليمان وملك بـلاد الروم جميعـا، واستقرت لـه السلطنة ببـلاد الـروم وبقـي كـذلـك إلى أن قتل وملـك بعـده ابنـه عـز الـديـن كيكـاووس بن كيخسرو، ثـم توفي كيكـاوس وملك بعـده أخوه السلطـان عـلاء الـديـن كيقبـاد ابـن كيخسرو، وتـوفي كيقبـاذ سنـة أربـع وثـلاثين

وستمائة،وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم،وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين، وعز الدين، فملكا معا مدة مديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة، وهرب أخوه عز الدين إلى القسطنطينية، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه ، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنا لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه، وهو نائب للتتر على ما نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم وقتل ما لا يحصى، وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان ابن ألدكز، وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفيها توفي راشد الدين سنان بن محمد، وكنيته أبو الحسن صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام، وأصله من البصرة.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان بدمشق على أكمل ما يكون من المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيدا، وغاب خمسة عشر يوما، وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه العادل وداعا لا لقاء بعده، فمضى إلى الكرك، وأقام به حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق، وركب في يوم الجمعة خامس عشر

صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته أن لا يركب إلا وهو لابس كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حملوه معه، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر،وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم، وغشيته نصف الليل حمى صفراوية، وأخذ المرض في التزايد وفصده الأطباء في الرابع، فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فحصل له راحة، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل ذكره بالشهادة،وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، أعني في الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله إلى رحمة الله تعالى وكرامته،وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها،وصلى الناس عليه، ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضا فيها، وكان نزوله إلى جدثه وقت صلاة العصر من النهار المذكور.

وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة

والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك،

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت دارا لرجل صالح، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل ووضع قدام المنبر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيما.

وكان مولده السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريبا من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر.

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهما، وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف دارا ولا عقارا.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس، وذلك غير

ما أطلقه من ثمن الخيل المصابة في القتال، فلم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به.

ولم يؤخر صلاة عن وقتها، ولا صلى إلا جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله، ولا يفضل يوما على يوم، وكان كثير سماع الحديث النبوي، وقرأ مختصرا في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق صبورا على ما يكره، كثير التغافل عن أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره و لايعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوما جالسا فرمى بعض المماليك بعضا بسرموزة فأخطأته، ووصلت إلى السلطان ووقفت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط.

قال العماد الكاتب: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفواته الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق، وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحده وسلطانه، ورزىء الإسلام بمشيد أركانه.

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وبيد

الملك خضر ابن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم: سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس ابن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر، وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية.

والملك الأفضل هو الاكبر من أولاد السلطان، والمعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر.

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير في توزره، ومد الجزري بجزره، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال الى ذلك، وحصلت الوحشة بين الأخوين: الأفضل والعزيز.

وفي هذه السنة بعد موت السلطان قدم الملك العادل من الكرك الى دمشق، وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه الى بلاده التي وراء الفرات.

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التي بيد الملك العادل وعوده وموته

في هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود ابن مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم، ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وسار إلى جهة حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود اسهال قوي، وضعف فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قايماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وقوي بعز الدين مسعود المرض وتوفي في السابع والعشرين من شعبان في هذه السنة، فكانت مدة مابين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، وكانت مدة ملك عز الدين مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان دينا خيرا كثير الإحسان، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قايماز

ذكر قتل بكتمر صاحب أخلاط

في هذه السنة في أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب أخلاط، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماته بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وفرح فرحا كثيرا وعمل تختا يجلس عليه، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين، وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه الملك العزيز، فلم يمهله الله تعالى. وكان هذا بكتمر من مماليك ظهير الدين شاه أرمن وكان له خشداش اسمه هزار دیناري، وكان قد قوي وتزوج ابنة بكتمر، وطمع في الملك فوضع على بكتمر من

قتله، ولما قتل ملك بعده هزار ديناري خلاط وأعمالها واسم هزار ديناري المذكور آق سنقر، ولقبه بدر الدين، وجلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلاط فاشتراه منه شاه أرمن سكمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقيا له ولقبه هزار ديناري، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلاط بقي المذكور من أكبر الأمراء، وتزوج ببنت بكتمر عينا خاتون، فلما قتل بكتمر خلف ولدا فأخذ هزار ديناري المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعة إرزاس بموش، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين، واستمر بدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكة خلاط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

في هذه السنة شتى شهاب الدين الغوري في بر شاور وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم، وعاد منصورا ومؤيدا.

وفيها: توفي سلطان شاه بن أرسلان بن اطسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد ملك مرو وخراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة، وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسمائة.

وفيها: مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة حتى مات.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الري

كان طغريل بن أرسلان بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن

داود بن ميكائيل السلجوقي قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وملك همذان وغيرها، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن ألدكز، وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، فخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه، فسار خوارزم شاه تكش وملك الري، وذلك في سنة ثمان وثمانين، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزانته وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو، ولما دخلت سنة تسعين سار تكش إلى حرب طغريل السلجوقي، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام وسار تكش، فملك همذان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع بعضها لمماليكه ورجع إلى خوارزم، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بوية طغريل بك ابن ميكائيل بن سلجوق ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل ثم ابنه ملكشاه ابن ألب أرسلان، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلا فقامت بتدبير المملكة أم محمود تركان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور، ثم ابنه داود بن محمود بن

محمد المذكور مدة يسيرة، ثم عمه طغريل بن محمد ، ثم أخوه مسعود ابن محمد، ثم ان ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياما يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت، العساكر وقام من بني سلجوق ثلاثة: أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور، والثاني سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور ،والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وكان ألدكز متزوجا بأم أرسلان شاه المذكور، فقوي عليها سليمان شاه واستقر في همذان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ثم قبض سليمان شاه وقتل وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان في السنة المذكورة، أعني سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب ألدكز، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وجرى له ماذكرناه حتى قتله تكش في هذه السنة أعني سنة تسعين وخمسمائة وانقرضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد.....

وفي هذه السنة —أعني سنة تسعين— استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين، فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين، ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلا ونهارا، وأشاع ندماؤه أن عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه بالخفية فأنشده العادل:

فـــــــــــلا خير في اللـــــــــــــ

ـــــــــــذات مـــــــــــن دونها ستر

فقبل وصيـة عمه وتظاهـر بذلك وفـوض أمر المملكة إلى وزيـره ضياء الدين بن الأثير الجزري يدبرها برأيـه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبـة عن ذلك وأزال المنكـرات وواظب على الصلـوات، وشرع في نسخ مصحف بيده.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

وفيها:عـاود الملك العـزيز عثمان صـاحب مصر قصـد الشام ومنـازلة أخيه الملك الأفضل فسار ونزل الفـوار من أرض السواد من بلاد دمشق، فاضطـرب بعض عسكـر العزيـز عليه وهم طـائفة مـن الأمراء الأسـدية وفارقـوه، فبادر العزيـز العود إلى مصر بمن بقـي معه من العسكـر، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحـل العزيـز عائدا إلى مصر رحـل الملـك الأفضل وعمـه العادل ومـن انضم إليهما من الأسدية، وساروا في إثر العزيز طالبين مصر فساروا حتى نـزلوا على بلبيـس وقد تـرك فيها العـزيز جماعـة من الصـلاحية، وقصـد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعـه العادل عن ذلك فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيـلاء عليها فمنعـه عمه العـادل أيضـا من ذلـك، وقـال مصر لك متـى شئـت، وكاتـب العـادل العزيـز في البـاطن وأمـره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخـوين، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابستهم لما رأى من فساد أحـوالهم فدخل عليه الملك العزيز وسـأله، فتـوجـه القاضي الفـاضـل مـن القاهـرة إلى عنـد الملك العـادل واجتمع بـه واتفقا على أن يصلحـا بين الأخويـن، فأصلحـا بينهما، وأقام الملـك العـادل بمصر عند العـزيـز ابـن أخيـه ليقـرر أمور مملكتـه وعـاد الأفضل إلى دمشق.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

وفيها: نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة في صفر فكان مدة لبثه بالقلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكروه.

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل في مصروالملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق، وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، فخرجا وسارا من مصر، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين، وهو أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ماطلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق، وقد حصنها الملك الأفضل فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه، وأنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة، وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفيا في صندوق خوفا عليه من القتل، وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضدا له، فأخذت منه بصرى أيضا فلحق بأخيه الملك الظاهر، فأقام عنده بحلب وأعطي الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله واستوطنها، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ماكان وقع عليه الإتفاق

بينهما، وتسلمها الملك العادل، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الإثنين تاسع شعبان، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهرا، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الأفضل بصرخد كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر، وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه
عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقي
من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه:

وافى كتابك يابن يوسف معلنا
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غدا حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الاسلام

.....في هذه السنة في شوال توفي سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الاسلام كان ولده الملك العزيز اسماعيل بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه، وكانت وفاة سيف الاسلام بزبيد، وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن آق سنقر صاحب سنجار، والخابور، والرقة، وكان حسن السيرة متواضعا يحب أهل العلم، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها: في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين محمد واستنجد بالملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين وعاد إلى الموصل، فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وتسلم نصيبين.....

وفيها: وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، وسار الملك العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر، ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، ثم سار الملك العادل إلى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل الرجال المقاتلة، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل، وجعل إليه أمر الحرب والصلح، ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين خطلغ مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي ابن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، وليس ليولق أرسلان من الحكم شيء وانما الحكم إلى مملوك والده البقش.....

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

في هذه السنة في منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد، فركض خلف ذئب، فتقنطر وحم سابع المحرم في جهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في المعي، واحتبس طبعه فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا، وكان في غاية السماحة والكرم والعدل، والرفق بالرعية، والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد، واتفقت الأمراء على إحضار واحد من بني أيوب ليقوم بالملك، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد، فأرسلوا إليه فسار محثا ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور بن الملك العزيز، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهورا، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفرا متنكرا خوفا من أصحاب عمه الملك العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الأول، ثم سار

الملك الأفضل إلى القاهرة، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر، فتنكر منه فخر الدين جهاركس، وفارقه وتبعه عدة من العسكر، وساروا إلى الشام وكاتبوا الملك العادل، وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين، فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره المدينة حتى وصل إلى باب البريد، ولم يمدهم العسكر فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق وعزم العادل على تسليم البلد لولا ماحصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين

وفي شهر رمضان من هذه السنة قصد الملك المنصور صاحب حماة

بارين وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها،وكان عز الدين ابراهيم مع الملك العادل محصورا معه بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق وانجرح الملك المنصور حال الزحف، ثم فتحها في التاسع والعشرين من ذي القعدة وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.....

وفي هذه السنة رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.....

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين أرسلان، حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قايماز عاقلا أديبا فاضلا في الفقه على مذهب أبي حنيفه، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس.....

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسائة

والملكان الأفضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك، ففقد ووجد عليه الملك الظاهر وجدا عظيما، وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل من تكشف خبر، واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية فأرسل إلى الظاهر يقول له ان محمود بن الشكري أفسد مملوكك وحمله إلى الأفضل أخيك فقبض الظاهر على ابن الشكري فظهر المملوك عنده، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل وترك قتال العادل، وظهر الفشل في العسكر فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر، ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما به إلى أن ينسلخ الشتاء، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسار في إثر الأفضل

إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر تفرقت عساكره في بلادهم لأجل الربيع فأدركه عمه العادل، فخرج الأفضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافا بالسايح فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميافارقين وحاني وسمسياط، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، وكان دخول العادل إلى القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر فيها، وتوفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في سابع عشر ربيع الآخر، وقيل إن مولد القاضي الفاضل سنة ست وعشرين وخمسمائة فكان عمره نحو سبعين سنة، ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور واستقل العادل في السلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم، فقبل الملك العادل عذره، وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة، ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضا عن بعرين، فرضي ابن المقدم بذلك لأنهما خير من بعرين بكثير، وتسلمهما عز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وكان له أيضا فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم صاحب حلب بذلك،

وقصر النيل في هذه السنة تقصيرا عظيما حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعا.....

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

لما دخلت هذه السنة كان بالديار المصرية الملك العادل، وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر، وهو مجد في تحصين حلب خوفا من عمه الملك العادل، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل نائب أبيه بها، وبالشرق الملك ابراهيم ابن الملك العادل، وبميافارقين الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل.

وفي هذه السنة: توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وصارت البلاد بعده وهي منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب، لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ونزل عبد الملك بالأمان، فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم، وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب من هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما آيس الملك الظاهر منه سار إلى المعرة، وأقطع بلادها، واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب، وكان معتقلا بها، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع قراقوش فأمر الملك

الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم فضرب ضربا شديدا وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماة، وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة، ونزل شمالي البلد، وشعث التربة التقوية وبعض البساتين، وزحف من جهة الباب الغربي، وقاتل قتالا شديدا، ثم زحف وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور وعلى مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق، وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل، ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل، ويتسلمها الملك الأفضل، وتسلم دمشق حينئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر، وكان قد تخلف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما: فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق، فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما، واشتدت مضايقة الأخوين الأفضل والظاهر لدمشق، وتعلق النقابون بسورها فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم إلي دمشق الآن، فقال له الأفضل: إن حريمي حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذه البلد لك فاجعله إلي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر من قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما كان لأجل

الأفضل، فقال لهم الأفضل: إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال، وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجل أخي الملك الظاهر فأنتم وإياه، فقالوا: إنما قتالنا لأجلك وتخلوا عن القتال، وأرسلوا وصالحوا الملك العادل، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق، وقد تفرقت العساكر، فرحل الملك الظاهر عن دمشق في أول المحرم سنة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفي هذه السنة: أعني سنة سبع وتسعين توفي عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني، وكان فاضلا في الفقه والأدب، والخلاف، والتاريخ، وله النظم البديع، والنثر الفائق، وكتب لنور الدين، ولصلاح الدين، وله التصانيف الحسنة منها: البرق الشامي، وخريدة القصر، وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكان عمره نيفا وسبعين سنة.....

وفيها: كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل، وفيها: كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة فهدمت مدنا كثيرة.

وفيها: في رمضان توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي الواعظ المشهور وتصانيفه مشهورة، وكان كثير الوقيعة في العلماء، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة بعد رحيل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق كما ذكرنا، قدم إليها الملك العادل، وكان قد سار ميمون القصري مع الملك الظاهر فأقطعه اعزاز، وفيها: خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفا من انتزاعها منه، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب. وفيها أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد

ابن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل له تسليم فامية بشرط أن يعطي شمس الدين عبد الملك بن المقدم أقطاعا يرضاه فأقطعه الملك الظاهر الراوندان، وكفر طاب، ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسلم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان، فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه.

وفيها: سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار بحلب، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات، ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة، وأخذت من الملك الظاهر أيضا قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران ومامعها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى وسيره إلى الشرق، وكان بميافارقين الملك الأوحد ابن الملك العادل، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية، والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي هذه السنة أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف وأمره بحصار ماردين فحصرها وضايقها، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل في الصلح فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويخطب له ببلاده ويضرب بالسكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك، واستقر الصلح عليه.

وفيها أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام، فسار بوالدته وأخوته، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر.

وفيها سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطا للفرنج، وأقام بها وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بانجاده فأنجداه، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين، واتقعوا معه في ثالث شهر رمضان من هذه السنة واقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل وأسر من خيلهم جماعة وكان يوما مشهودا .....

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار، وانضم إليهم جموع من السواحل واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعرين في الحادي والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوما، فانتصر ثانيا، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة.....

وفي هذه السنة ولد الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد صاحب حماة من ملكة خاتون بنت السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وسمي عمر، وإنما سمى محمودا بعد ذلك، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة.

وفي هذه السنة أرسل الملك العادل وانتزع ماكان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين، وسروج، وقلعة نجم، ولم يترك بيده غير سميساط فقط، فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل في ابقاء ماكان بيده، وتوجهت أم الملك الأفضل، وتوجه معها من حماة القاضي زين الدين ابن الهندي إلى الملك العادل فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة.

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل: وقد عوقب البيت الصلاحي بمثل مافعله والدهم السلطان صلاح الدين لما خرجت إليه نساء بيت الأتابك ومن جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن في إبقاء الموصل على عز الدين مسعود، فردهن ولم يجب إلى سؤالهن، ثم ندم رحمه الله تعالى على ردهن، فجرى للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل ذلك، ولما جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب بلاد الروم.....

وفي هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها وقتلوا أهلها، وكانت هي وجميع أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان، وكان مشغولا ليلا ونهارا بشرب الخمر، ولايلتفت إلى تدبير مملكته، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت.

وفيها. توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر، وكانت كثيرة المعروف.

ثم دخلت سنة ستمائة

والملك العادل بدمشق وفيها كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج.

وفيها نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ووصل إلى حارم، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه.

وفيها خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده وانتمى إليه، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود وقصد نصيبين وهي لقطب الد ين واستولى على مدينتها، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن

العادل، فسار إليه واجتمع معه أخوه الملك الأوحد صاحب ميافارقين والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشره، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس، وكانت هذه الواقعة أول ماعرفت من سعادة الملك الأشرف ابن العادل، فإنه لم ينهزم له راية بعد ذلك، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكي عليه، ووقع الصلح بينهم في أول سنة احدى وستمائة.

وفيها اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر، ونزل على الطور في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة.

وفيها استولت الفرنج على قسطنطينية، وكانتقسطنطينيةبيد الروم من قديم الزمان، فلما كانت هذه السنة اجتمعت الفرنج وقصدتها في جموع عظيمة وحاصروها فملكوها وأزالوا يد الروم عنها، ولم تزل بأيدي الفرنج إلى سنة ستين وستمائة فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج.

وفيها توفي السلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن يبغو أرسلان بن سلجوق، سلطان بلاد الروم في سادس ذي القعدة حسبما قدمنا ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان مرضه بالقولنج، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وهي أنقرة، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان، وكان صغيرا، فلم يستتبت أمره، وكان ماسنذكره إن شاء الله تعالى.....

وفيها خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوها خمسة أيام، وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام

والجزيرة، وبلاد الروم، وصقلية، وقبرس، والعراق، وغيرها وخربت سور مدينة صور.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

في هذه السنة كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج، وسلم إلى الفرنج يافا، ونزل عن مناصفات لد، والرملة، ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستورا وسار العادل إلى مصر وأقام بدار الوزارة.

وفيها أغارت الفرنج على حماة، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا، وامتلأت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن البلاعي، وكان فقيها شجاعا تولى بر حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك، ووصل إلى أهله بحماة سالما، ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج، وفيها بعد الهدنة توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وكان عنده استشعار من السلطان الملك العادل، فلما وصل إليه بالقاهرة أحسن إليه إحسانا كبيرا، وأقام في خدمته شهورا ثم خلع عليه وعلى أصحابه، وعاد إلى حماة.

وفيها ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بلاد الروم، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على البلاد قد هرب كيخسرو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب، ثم تركه، وسار إلى قسطنطينية فأحسن إليه صاحبها، وأقام بالقسطنطينية إلى أن مات أخوه ركن الدين سليمان، وتولى ابنه قليج أرسلان، فسار كيخسرو من قسطنطينية وأزال أمر ابن أخيه، وملك بلاد الروم، واستقر أمره.

وفيها؛ كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسني أمير مكة، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسني، أمير المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا.

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها.....

في هذه السنة توفي الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحاج، وكان قد ولاه الخليفة على جميع خورستان، وكان خيرا صالحا، وكان يتشيع وفيها تزوج ابو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة، فعدل إلى المصاهرة والهدنة، فكف الكرج عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من مصر إلى الشام، ونازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى، ثم وصل إلى دمشق، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان، ثم سار ونازل حصن الأكراد، وفتح برج أعزاز وأخذ منه سلاحا ومالا، وخمسمائة رجل، ثم سار ونازل طرابلس ونصب عليها المجانيق، وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، ثم عاد في أواخر ذي الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص.....

وفيها في ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية ـ باللام - وهي مدينة للروم على ساحل البحر. وفيها قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر، وكان أتابك قتلغ مملوك شاه أرمن فقبض عليه ابن بكتمر، فثارت عليه أرباب الدولة وقبضوه، وملكوا بلبان مملوك شاه أرمن ابن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

والملك العادل نازل على بحيرة قدس، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها.

ذكر استيلاء الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل خلاط، وكان صاحب خلاط بلبان حسبما قدمنا ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسار الملك الأوحد من ميافارقين وملك مدينة موش، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي، فسار طغريل شاه واجتمع به بلبان فهزما الملك الأوحد، ثم غدر طغريل شاه ببلبان فقتله غدرا ليملك بلاده، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه، وقصد منازكرد فلم تسلم إليه، فرجع طغريل شاه إلى بلاده فكاتب أهل خلاط الملك الأوحد، فسار إليهم وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها واستقر ملكه بها.

وفي هذه السنة لما استقر الملك العادل بدمشق وصل إليه التشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي، فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ، والتقاه إلى القصير، ووصل من صاحبي حلب وحماة ذهب لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة، فلبسها الملك العادل، ونثر ذلك الذهب، وكان يوما مشهودا، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وتطوق به الملك العادل، وسيف جميع قرابه ملبس ذهبا تقلد به، وحصان أشهب بمركب ذهب ونثر على رأسه علم أسود

مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة، ثم خلع رسول الخليفة على كل واحد من الملك الأشرف، والملك المعظم ابني الملك العادل عمامة سوداء وثوبا أسود واسع الكم، وكذلك على الوزير صفي الدين بن شكر، وركب الملك العادل وولداه ووزيره بالخلع، ودخل القلعة، وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه، وخوطب الملك العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر فخلع على الملك الكامل بها، وجرى فيها نظير ماجرى في دمشق من الاحتفال، ثم عاد السهروردي إلى بغداد مكرما معظما.

وفي هذه السنة اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها.....

ثم دخلت سنة خمس وستمائة.

والملك العادل بدمشق وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجها إلى بلاده الشرقية

وفي هذه السنة توجه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل من دمشق راجعا إلى بلاده الشرقية، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر، وأنزله بالقلعة وبالغ في إكرامه، وقام للأشرف ولجميع عسكره بجميع مايحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات، وكان يحمل إليه في كل يوم خلعة كاملة، وهي غلالة وقباء وسراويل وكمة وفروة، وسيف وحصان ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش، وخمس خلع لأصحابه، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يوما، وقدم له تقدمه وهي مائة ألف درهم، ومائة بقجة مع مائة مملوك فمنها عشر بقج في

كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس، وثوبان خطاي، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير، ومنها عشر في كل واحدة منها عشرة أثواب عتابي خوارزمي، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير، ومنها عشر في كل واحدة خمسة أثواب عتابي بغدادي وموصلي، وعليها عشرة جلود قندس صغار، ومنها عشرون في كل واحدة خمس قطع مرسوسي ودبيقي، ومنها أربعون في كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام، وحمل إليه خمس حصن عربية بعدتها، وعشرين اكديشا، وأربعة قطر بغال، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة، وقطارين من الجمال، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده.

وفي هذه السنة أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حيلان إلى حلب، وغرم على ذلك أموالا كثيرة وبقي البلد يجري الماء فيه، وفي هذه السنة، وصل غياث الدين كيسخرو بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم إلى مرعش، لقصد بلاد ابن لاوون الأرمني، وأرسل إليه الملك الظاهر نجدة، فدخل كيخسرو إلى بلاد ابن لاوون، وعاث فيها ونهب وفتح حصنا يعرف بفرقوس.

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

في هذه السنة قتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن عماد الدين بن زنكي بن آق سنقر صاحب جزيرة ابن عمر، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة ست وسبعين وخمسمائة قتله ابنه غازي، وكان سنجر شاه ظالما قبيح السيرة جدا لايتمنع عن قبيح يفعله من القتل، وقطع الألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى، وتعدى ظلمه إلى أولاده وحريمه، فبعث ابنيه محمودا ومودودا إلى قلعة فحبسهما فيها، وحبس ابنه المذكور غازي في دار في المدينة، وضيق عليه، وكان بتلك

الدار هـوام كثيرة فاصطـاد غازي المذكور منهـا حية وأرسلهـا إلى أبيه في منديل لعله يرق عليه فلم يزده ذلك إلا قسوة، فأعمل غازي الحيلة حتى هرب، وكـان له واحـد يخدمه فقرر معـه أن يسافر ويظهـر أنه غـازي بن معز الـدين سنجـر شاه ليـأمنه أبـوه فمضى ذلـك الإنسان إلى الموصـل فأعطي شيئا وسافر منها، واتصل ذلك بسنجر شاه فاطمأن، وتوصل ابنه غازي حتى دخـل إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراري أبيـه، وعلم به جماعة منهم، وكتموا ذلك عن سنجـر شاه لبغضهم فيه، واتفق ان سنجر شاه شرب يـوما بظـاهر البلـد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفـراقية، وهو يبكي، ودخل داره سكـران إلى عند الحظية التي ابنه مخبأ عنـدها، ثم قام معز الـدين سنجر شاه ودخـل الخلاء فهجم عليه ابنه غـازي فضربه أربعـةعشرة ضربـة بالسكين، ثـم ذبحه وتركـه ملقى، ودخـل غازي الحمام وقعد يلعب مـع الجواري، فلو أحضر الجند واستحلفهم في ذلـك الوقت لتـم له الأمـر، وملك البـلاد، ولكنـه تنكر واطمـأن، فخرج بعـض الخدم وأعلـم أستـاذ الدار فجمـع النـاس وهجـم على غازي وقتلـه، وحلـف العسكـر لأخيه محمـود بن سنجـر شاه، ولقـب معـز الديـن بلقب أبيـه، ووصـل معز الـديـن محمـود بن سنجـر شـاه بـن زنكي، واستقـر ملكـه بالجزيرة، وقبض على جواري أبيه فغرقهـن في دجلة، ثم قبض محمود بعد ذلك أخاه مودودا.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في هـذه السنة سـار الملك العـادل من دمشـق، وقطع الفـرات، وجمع العساكـر والملوك من أولاده، ونـزل حران ووصـل إليه بها الملك الصـالح محمود بـن محمد بـن قرا أرسـلان الأرتقي، صـاحب آمـد وحصن كيفـا، وسار الملك العادل مـن حران، ونازل سنجار، وبها صاحبها قطـب الدين محمد بن عماد الـدين زنكي بن مـودود بن عماد الدين زنكـي فحاصرها، وطال الأمـر في ذلك، ثم خـامرت العساكـر التي صحبة الملـك العادل،

ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه، فرحل عن سنجار، وعاد إلى حران، واستولى الملك العادل على نصيبين، وكانت لقطب الدين محمد المذكور، وكذلك استولى على الخابور.

وفي هذه السنة توفي الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين.....

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

وفيها عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق، وفيها قصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الأوحد ابن الملك العادل بها، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر فحسن له السكر أنه تقدم إلى خلاط في عشرين فارسا، فخرج إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيرا، وحمل إلى الملك الأوحد، فرد على الملك الأوحد عدة قلاع، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحد، فتسلم ذلك منه، وأقام وتحالفا وأطلق.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل في آخر رجب، وكان مرضه قد طال، وملك الموصل سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيارة ليستحم بها، وعاد إلى الموصل في سيارة فتوفي في الطريق ليلا، وكان أسمر حسن الوجه قد أسرع إليه الشيب، وكان شديد الهيبة على أصحابه، وكان عنده قلة صبر في أموره، واستقر في ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن

أرسلان شاه بن مسعود، وكان عمر القاهر عشر سنين، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره، وهذا لولو هو الذي ملك الموصل على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكي ملكه أبوه قلعتي العقر وشوش، وهما بالقرب من الموصل.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم.

وفيها سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق، ومقامه إلى الديار المصرية، وأقام بدار الوزارة.

وفيها توفي فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم.

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط

في هذه السنة توفي الملك الأوحد أيوب بن الملك العادل، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط، واستقل بملكها مضافا إلى مابيده من البلاد الشرقية، فعظم شأنه ولقب شاه أرمن.

وفي هذه السنة قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم، وقتله ملك الأشكري،وملك بعده ابنه كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان، حسبما تقدم ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

في هذه السنة قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين سامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون، بأمر أبيه الملك العادل، وحبسه في الكرك إلى أن مات بها، وحاصر القلعتين المذكورتين، وتسلمها من غلمان سامة وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها فخربت وبقيت خرابا، وأبقى عجلون وانقرضت الصلاحية بهذا سامة، وملك الملك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس ومامعها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي.

وفي هذه السنة عاد الملك العادل إلى الشام وأعطى ولده الملك المظفر غازي الرها مع ميافارقين.

وفيها أرسل الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل، فاستعطف خاطره، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، فزوجها من الملك الظاهر، وزال ماكان بينهما من الاحن.....

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

في هذه السنة في المحرم عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وكان المهر خمسين ألف دينار، وتوجهت من دمشق في المحرم إلى حلب فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة.

وفيها عمر الملك العادل قلعة الطور، وجمع لها الصناع من البلاد والعسكر حتى تمت.

وفي هذه السنة سار طغريل شاه بـن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم وحاصر ابـن أخيه سلطان الروم كيكـاوس بسيواس، فاستنجـد كيكاوس بالأشرف بـن العادل، فخاف عمه طغـريل ورحل عنه، وكـان لكيكاوس أخ اسمه كيقبـاذ، فلما جرى ماذكـرناه سـار كيقباذ واستولى على أنكـورية من بـلاد أخيه كيكـاوس، فسار كيكاوس وحصره وفتـح أنكورية وقبض أمـرائه وحلق لحاهـم ورؤوسهم، وأركـب كل واحـد منهم فـرسا وأركـب قدامـه وخلفه قحبتين وبيد كل منهما معـلاق تصفعه به، وبين يـدي كل واحد منهم مناد ينادي هذا جزاء من خان سلطانهم.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

في هـذه السنة ظفـر عز الـدين كيكـاوس بن كيخسرو صـاحب بـلاد الروم بعمه طغريل شاه، فأخذ بـلاده وقتله وذبح أكثر أمرائه، وقصد قتل أخيه علاء الدين كيقباذ، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه.

وفيها في رمضان توفي بحلب فارس الـدين ميمون القصري، وهو آخر مـن بقي مـن كبراء الأمـراء الصلاحيـة، وهـو منسوب إلى قصر الخلفـاء بمصر، كان قد أخذه السلطـان صلاح الدين من هناك وفيهـا ولد للملك الظاهـر من ضيفة خاتـون بنت الملك العـادل ولده الملك العزيـز غياث الدين محمد.....

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة

في هذه السنة توفي دلدرم بن ياروق، صـاحب تل باشر، وولي تل باشر بعده ابنه فتح الدين.....

وفيهـا أسرت التركمان ملـك الأشكـري، وهـو قـاتـل غيـاث الـديـن كيخسرو فحمـل إلى ابنه كيكـاوس بن كيخسرو، فـأراد قتلـه فبذل لـه في

نفسه أموالا عظيمة، وسلم إلى كيكاوس قلاعا وبلادا لم يملكها المسلمون قط.

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى مصر.....

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب.

ولما كانت صبيحة يوم السبت وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة. ابتدأ بالملك الظاهر المذكور حمى حادة، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين ان يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز، ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازي، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وأعذق به جميع أمور الدولة، وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر كفر سودا، وأخرج من حلب في ليلته بالتوكيل، وأخرج علم الدين قيصر الملك الظاهر ومنع الناس الدخول إليه، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، وكان مولده بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة فكان عمره أربعا وأربعين سنة وشهورا، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي، وكان ذكيا فطنا، وترتب الملك العزيز في المملكة ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم، فدبر الأمور وأحسن السياسة، وكان عمر الملك

العزيز لما قرر في المملكة سنتين وأشهرا، وعمر أخيه الملك الصالح نحو اثنتي عشرة سنة.

وفي هذه السنة توفي تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندي، وكان إماما في النحو واللغة، وله الإسناد العالي في الحديث، وكان ذا فنون كثيرة في أنواع العلم، وهو بغدادي المولد والمنشأ، وانتقل وأقام بدمشق.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

والسلطان الملك العادل بالديار المصرية، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا في جمع عظيم، ولما بلغ الملك العادل ذلك خرج بعساكر مصر، وسار حتى نزل على نابلس، فسارت الفرنج إليه، ولم يكن معه من العساكر مايقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عقبة أفيق، فأغاروا على بلاد المسلمين، ووصلت غارتهم إلى نوى من بلد السواد، ونهبوا مابين بيسان ونابلس، وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين مايفوت الحصر، وعادوا إلى مرج عكا وكانت قوة هذا النهب مابين منتصف رمضان وعيد الفطر من هذه السنة، وأقام الملك العادل بمرج الصفر، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور، وهو الذي بناه الملك العادل على ماتقدم ذكره، ثم رحلوا عنه وانقضت السنة والفرنج بجموعهم في عكا.....

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

والملك العادل بمرج الصفر، وجموع الفرنج بمرج عكا، ثم ساروا منها إلى الديار المصرية، ونزلوا على دمياط، وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر، ونزل قبالتهم، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر، وأرسل الملك العادل العساكر التي عنده إلى عند ابنه الملك الكامل،

فوصلت إليه أولا فأولا، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل، أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط.

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكي، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين، فأوصى بالملك له، وأن يقوم بتدبير مملكته بدرالدين لؤلؤ فنصبه بدر الدين لؤلؤ في المملكة، وجعل الخطبة والسكة باسمه، وقام لؤلؤ بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر وفاة كيكاوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب، وأجلس ابنه العزيز في المملكة، وكان طفلا طمع صاحب بلاد الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سميساط، واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وبلادها، ويسلمها إلى الملك الأفضل، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس، وتحالفا على ذلك وسار كيكاوس إلى جهة حلب، ومعه الملك الأفضل ووصلا إلى رعبان واستولى عليها كيكاوس وسلمها إلى الملك الأفضل، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك، ثم سار إلى تل باشر وبها ابن دلدرم ففتحها، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل، وأخذها كيكاوس لنفسه، فنفر خاطر الملك الأفضل وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك، ووصل الملك

الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكاوس عن البلاد، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم، وكان قد سار كيكاوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضا، وسار الملك الأشرف بالجموع التي معه، ونزل وادي بزاعا وأتقع بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكاوس، فانهزمت مقدمة عسكر كيكاوس، وأخذ من عسكر كيكاوس عدة أسرى، فأرسلوا إلى حلب ودقت البشائر لها، ولما بلغ ذلك كيكاوس، وهو بمنبج ولى منهزما مرعوبا، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها، وكذلك استرجع رعبان وغيرها، وتوجه الملك الأفضل إلى سميساط، ولم يتحرك بعدها في طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وعاد الملك الأشرف إلى حلب، وقد بلغه وفاة أبيه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلا بمرج الصفر، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين وهي عند عقبة أفيق، فنزل بها ومرض، واشتد مرضه ثم توفي هناك إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة خمس عشرة وستمائة، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة، وكان عمره خمسا وسبعين سنة، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازما متيقظا، غزير العقل، سديد الآراء، ذا مكر وخديعة، صبورا حليما يسمع مايكره ويغضي عنه، وأتته السعادة واتسع ملكه، وكثرت أولاده، ورأى فيهم مايحب، ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر مارآه الملك العادل في أولاده،ولقد أجاد شرف الدين بن عنين في قصيدته التي مدح بها الملك العادل التي

- ١٠١٨٦ -

مطلعها:

مـــاذا على طيـــف الأحبـــة لـــو سرى
وعليهـــم لـــو ســـامحوني بـــالكـــرى

ومنها:

العـــادل الملـــك الـــذي أسماؤه
في كـــل نـــاحيـــة تشرف منبرا
مـــا في أبي بكـــر لمعتقـــد الهدى
شـك يـريـب بـأنـه خير الـورى
بين الملـوك الغـابـريـن وبينـه
في الفضـل مـابين الثـريـا والثـرى
نسجـت خـلائقـه الحميـدة مـا أتـى
في الكتـب عـن كسرى الملـوك وقيصرا

ومنها في وصف أولاده:

لاتسمعـن حـديـث ملـك غيره
يـروى فكـل الصيـد في جـوف الفـرا
ولـه الملـوك بكـل أرض منهـم
ملـك يجر إلى الأعـادي عسكـرا
مـن كـل وضـاح الجبين تخالـه
بـدرا فـإن شهـد الـوغـى فغضنفـرا

وخلف الملك العادل ستة عشر ولدا ذكرا غير البنات، ولما توفي الملك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرا، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى، وكان بنابلس بعد وفاته، وكتم موته وأخذه ميتا في محفة، وعاد به إلى دمشق واحتوى الملك المعظم على جميع ماكان مع أبيه من الجواهر والسلاح والخيول، وغير ذلك، ولما وصل دمشق حلف جميع الناس له، وأظهر موت أبيه، وجلس للعزاء، وكتب إلى الملوك من أخوته وغيرهم يخبرهم بموته، وكان في خزانة الملك العادل لما توفي سبعمائة

ألف دينار عينا، ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه ذلك جدا، واختلفت العساكر عليه فتأخر عن منزلته، وطمعت الفرنج، ونهبت بعض أثقال المسلمين، وكان في العسكر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان مقدما عظيما في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة، وحصل في العسكر اختلاف كثير حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد واللحوق باليمن، وبلغ الملك المعظم عيسى بن العادل ذلك فرحل من الشام ووصل إلى أخيه الملك الكامل، وأخرج عماد الدين ابن المشطوب ونفاه من العسكر إلى الشام، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل، وقوي مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ماذكرناه من الفتنة التي حصلت في عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب.

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم في سنة سبع وستمائة أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي المذكور قلعتي العقر وشوش، فلما مات أخوه القاهر وأجلس ولده أرسلان شاه ابن القاهر في المملكة، وكان به قروح وأمراض، تحرك عمه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه وقصد العمادية، واستولى عليها، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ المستولي على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه بالملك الأشرف ابن الملك العادل، ودخل في طاعته، فأنجده الملك الأشرف بعسكر، وساروا إلى زنكي بن أرسلان شاه فهزموه، وكان زنكي المذكور مزوجا ببنت مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين، فكان مظفر الدين لايترك

ممكنا في نجدة صهره زنكي المذكور ويبالغ في عداوة بدر الدين لؤلؤ لأجل صهره.....

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

والملك الأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها وأقطاعاتها، والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج، وهم محدقون محاصرون لثغر دمياط، وكتب الملك الكامل متواصلة إلى اخوته في طلب النجدة.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة توفي نور الدين أرسلان ابن الملك القاهر مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، وكان لايزال مريضا فأقام بدر الدين لؤلؤ في الملك بعده أخاه ناصر الدين محمود بن الملك القاهر، وكان عمره يومئذ نحو ثلاث سنين، وهو آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة، وكان أبوه القاهر آخر من كان له استقلال بالملك منهم، ثم إن هذا الصبي مات بعد مدة واستقل بدر الدين لؤلؤ بالملك وأتته السعادة، وطالت مدة ملكه إلى أن توفي بالموصل، بعد أخذ التتر بغداد، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة

وفي هذه السنة: توفي قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار فملك سنجار بعده ولده عماد الدين شاهنشاه بن محمد، وكان قطب الدين حسن السيرة في رعيته وبقي عماد الدين شاهنشاه في الملك شهورا، ثم وثب

عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار، وهذا محمود هو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكي

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة: أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس، فخرب أسواره، وكانت قد حصنت إلى الغاية، فانتقل منه عالم عظيم، وكان سبب ذلك أن الملك المعظم لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دمياط خشي أن يقصدوا القدس، فلا يقدر على منعهم فخربه لذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفرنج يضايقون دمياط حتى هجموها في هذه السنة عاشر رمضان، وقتلوا وأسروا من بها، وجعلوا الجامع كنيسة، واشتد طمع الفرنج في الديار المصرية، وحين أخذت دمياط ابتنى الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفترق البحرين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طناح، ونزل فيها بعساكره.....

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

في هذه السنة حلف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر محمود، وجعله ولي عهده، وجرد عسكرا والطواشي مرشد المنصوري نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر فسار إليه، ولما وصل إلى الملك الكامل أكرمه وأنزله في ميمنة عسكره، وهي منزلة أبيه وجدة في الأيام الناصرية الصلاحية، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل.

قال القاضي جمال الدين مؤلف مفرج الكروب: وحضرت العزاء وعمري اثنتا عشرة سنة، ورأيت الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء، وأنشدته الشعراء المراثي فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشترين، وهو جندي كردي مطلعها:

الطرف في لجة والقلب في سعر
له دخان زفير طار بالشرر

ومنها في لبس الملك المنصور الحداد مطلعها :

ما كنت أعلم أن الشمس قد غربت
حتى رأيت الدجى ملقى على القمر
لو كان من مات يفدى قبلها الفدى
أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكاوس وملك أخيه كيقباذ

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة سبع وستمائة، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه، ومات فملك بعده أخوه كيقباذ بن كيخسرو، وكان كيقباذ محبوسا قد حبسه أخوه كيكاوس، فأخرجه الجند وملكوه.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري الضرير النحوي الحاسب اللغوي وكان حنبليا صحب ابن الخشاب النحوي وغيره، وفيها توفي أبو الحسن علي بن القاسم بن علي ابن الحسن الدمشقي الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ المعروف بابن

عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد إلى بغداد، وكان قد وقع على القفل الذي هو فيه في الطريق حرامية، وجرحوا ابن عساكر المذكور، ووصل على تلك الحال إلى بغداد وبقي بها حتى توفي في هذه السنة في جمادى الأولى رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والفرنج متملكون على دمياط والسلطان الملك الكامل مستقر في المنصورة مرابط للجهاد والملك الأشرف في حران، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب رأس عين، فخرج على الملك الأشرف وجمع ابن المشطوب المذكور جمعا وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضا، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصر ابن المشطوب بتل أعفر، وأخذه بالأمان، ثم قبض عليه، وأعلم الملك الأشرف بذلك فسر به غاية السرور، واستمر عماد الدين أحمد بن سيف الدين بن المشطوب في الحبس، ثم سار الملك الأشرف من حران واستولى على دنيسر، وقصد سنجار، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك وتسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى، وسلم إليه الرقة، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف فإن أباه الملك العادل نازل سنجار في جموع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعي، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار، سار إلى الموصل، ووصل إليها في تاسع عشر جمادى الأولى، وكان يوم وصوله إليها يوما مشهودا، وكتب إلى مظفر الدين صاحب إربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي على بدر الدين لؤلؤ القلاع التي استولى عليها، فأعادها جميعها، وترك في يده منها العمادية، واستقر الصلح بين الملك الأشرف

وبين مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقر، وشوش، والعمادية، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ولما استقر ذلك رحل الملك الأشرف عن الموصل ثاني شهر رمضان من هذه السنة، وعاد إلى سنجار، وسلم بدر الدين لؤلؤ قلعة تلعفر إلى الملك الأشرف، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل وحطه مقيدا في جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة، ولقي بغيه وخروجه مرة بعد أخرى.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة بقلعة حماة في ذي القعدة، وكان مدة مرضه إحدى وعشرين يوما بحمى حادة وورم دماغه، وكان شجاعا عالما يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين علي الآمدي، وكان في خدمة الملك المنصور قريب مائتي متعمم من: النحاة، والفقهاء، والمشتغلين بغير ذلك، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المضمار في التاريخ، وطبقات الشعراء، وكان معتنيا بعمارة بلده، والنظر في مصالحه وهو الذي بني الجسر الذي هو بظاهر حماة خارج باب حمص، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد:حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، ولما فتح بارين وكانت بيد ابراهيم ابن المقدم ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضا عنها، وهما خير من بارين بكثير، اختار ذلك لقرب بارين من بلده، وجرت له حروب مع الفرنج، وانتصر فيها وكان ينظم الشعر.

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفي الملك المنصور كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر في مقابلة الفرنج، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق وهو في الساحل في الجهاد، وقد فتح قيسارية وهدمها وسار إلى عثليث ونازلها، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته وشدة بأس الملك المظفر، فأرسلوا إلى الملك الناصر وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم في كل سنة قيل إن مبلغه أربعمائة ألف درهم، فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه أطلقه الملك المعظم فقدم الملك الناصر إلى حماة، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه، فاستحلفوه على ما أرادوا، وأصعدوه إلى القلعة، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة، لأن مولده سنة ستمائة، ولما استقر الملك الناصر في ملك حماة، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك، استأذن الملك الكامل في المضي إلى حماة ظنا منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها إليه بحكم الأيمان التي كانت له في أعناقهم، فأعطاه الملك الكامل الدستور، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله، فسار الملك المظفر إلى دمشق، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلي وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى الملك المظفر، فلم يحصل منهم إجابة فعاد الملك المظفر إلى مصر، وأقام في خدمة الملك الكامل، وأقطعه أقطاعا بمصر، إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميافارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور: الرها، وسروج، وكانت ميافارقين، وخلاط بيد الملك الأشرف، ولم يكن للملك الأشرف ولد، فجعل أخاه الملك المظفر غازي ولي عهده، وأعطاه ميافارقين وخلاط وبلادها، وهي إقليم عظيم يضاهي ديار مصر، وأخذ الملك الأشرف منه الرها وسروج.

وفي هذه السنة توفي بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان فقيها فاضلا من بيت كبير بخراسان، وخلف أربعة بنين عرفوا بأولاد الشيخ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل، وسنذكر بعض أخبارهم في موضعها إن شاء الله تعالى، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولا إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فمات هناك.....

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفي هذه السنة قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في ملك الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر، ووصلوا إلى المنصورة، واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وكتب السلطان الملك الكامل متواترة إلى أخوته، وأهل بيته يستحثهم على إنجاده، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، وهو ببلاده الشرقية واستنجده وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل، فجمع الملك الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب، وكذلك استصحب

معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة، وكان الملك الناصر خائفا من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة أنه مايمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه، فسار معه بعسكر حماة، وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق، ووصلوا إلى الملك الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة، فركب والتقى أخويه ومن في صحبتهما من الملوك، وأكرمهم وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الاسلام وتجملهم، واشتد القتال بين الفريقين ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم: القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبلة، وجميع مافتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ماعدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره، وقالوا لابد من تسليم الكرك والشوبك، وبينا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط، ففجروا فجرة عظيمة من النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، والفرنج لاخبرة لهم بأمر النيل، فركب الماء تلك الأرض، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط، وانقطع عنهم الميرة والمدد، فهلكوا جوعا، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع مابذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط، ويعقدوا مدة للصلح، وكان فيهم عدة ملوك كبار نحو عشرين ملكا، فاختلفت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم، فبعضهم قال لانعطيهم أمانا ونأخذهم ونتسلم بهم مابقي

بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار، وتضجر العساكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ملك عكا ونائب البابا صاحب رومية الكبرى وكندريس، وغيرهم من الملوك، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين وجلس لهم مجلسا عظيما، ووقف بين يديه الملوك من أخوته وأهل بيته جميعهم، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة، وقد حصنها الفرنج إلى غاية مايكون، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوي، وهو من مماليك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم، ثم سار السلطان الملك الكامل، ودخل دمياط ومعه أخوته وأهل بيته، وكان يوما مشهودا، ثم توجه إلى القاهرة، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق، وانتزع الرقة من محمود، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ولقي بغيه على أخيه، فإنا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله، وأخذ سنجار، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ثم عاد إلى بلاده.

ذكر وفاة صاحب آمد

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا بالقولنج، وقام في الملك بعده ولده الملك المسعود، وهو الذي انتزع منه

الملك الكامـل آمد، وكان الملك الصالح المذكـور قبيح السيرة، وقد أورد ابن الأثير وفاته في سنة تسع عشرة.....

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنـة استقل بدر الـدين لؤلـؤ بملك الموصل، وتـوفي الطفل الذي كان قد نصبه في المملكة وهو ناصر الـدين محمود بن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وسمى لؤلؤ نفسه الملك الـرحيم، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العـادل، فدافع عنه ونصره وقلع لـؤلؤ البيت الأتابكـي بالكلية واستمـر مـالكا للمـوصـل نيفـا وأربعين سنـة، سـوى ماتقـدم لـه مـن الاستيلاء والتحكـم في أيام أستـاذه نور الـدين أرسـلان شاه وابنـه الملك القاهر مسعود.

وفي هذه السنـة سار الملـك الأشرف إلى خدمة أخيـه الملك الكـامل، وأقام عنده بمصر متنزها إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنـة فوض الأتابـك طغريـل الخادم مدبر مملكـة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمـر الشغر وبكاس، فسار الملك الصالح من حلب، واستولى عليهما، وأضاف إليه الروج ومعرة مصرين.

وفي هذه السنة قصـد الملك المعظم عيسى صـاحب دمشق حماة، لأن الملك النـاصر صاحـب حماة كان قـد التزم لـه بمال يحمله إليـه إذا ملك حماة، فلـم يف لـه، فقصـد الملك المعظـم حماة ونـزل بجبرين، وغلقـت أبواب حماة، فقصدهـا الملك المعظم، وجرى بينهم قتـال قليل، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية فاستولى على حـواصلهـا وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستـولى عليها وأقام فيها واليا مـن جهته، وقرر أمورهـا ثم عاد إلى سلمية، فأقام بها حتى خرجت هذه السنة في قصد منازلة حماة.

وفي هـذه السنة: حـج من اليمـن الملك المسعـود بن يـوسف الملقـب أطسز، وهـو اسم تـركي، والعامـة تسميه أقسيـس، وكان قـد استولى على اليمن سنـة اثنتي عشرة وستمائة، وقبـض على سليمان شاه بـن شاهنشـاه ابن عمـر بن شاهشـاه بن أيوب، وحـج في هذه السنة، فلما وقـف الملك المسعود في هذه السنة بعـرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمـام الناصر لترفع على الجبل تقـدم الملك المسعـود بعساكره ومنـع من ذلـك، وأمر بتقـديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه مـن ذلك ثم عاد الملك المسعود إلى اليمـن، وبلغ ذلك الخليفة فعظـم عليه، وأرسل يشكـو إلى الملك الكامـل فاعتذر عـن ذلك فقبل عـذره، وأقام الملك المسعود في اليمـن مدة يسيرة، ثم عـاد إلى مكة ليستولي عليهـا، فقابلـه الحسن بـن قتادة فـانتصر الملك المسعـود وانهزم الحسـن بن قتـادة، واستقـرت مكة في ملـك الملـك المسعود وولى عليهـا وذلك في ربيع الأول من سنة عشرين وستمائة ثم عاد إلى اليمن.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

والأشرف بديار مصر عنـد أخيه الملك الكامل وأخـوهما الملك المعظم بسلمية مستـول عليها وعلى المعـرة، عازم على حصـار حماة، وبلغ الملـك الأشرف مافعله أخـوه المعظم بصاحب حماة، فعظم عليه ذلـك واتفق مع أخيـه الكامـل على الإنكـار على الملك المعظـم وهـو بسلميـة وقال لـه: السلطان يـأمرك بـالرحيـل، فقال: السمـع والطاعـة وكانـت أطماعه قـد قـويـت في الاستيـلاء على حماة، فـرحـل مغضبـا على أخـويـه الكـامـل والأشرف، ورجعت المعـرة وسلمية للناصر، وكـان الملك المظفر محمـود بن الملك المنصـور محمد بن تقـي الدين عمر بـن شاهنشاه بـن أيوب مقيما عند الملك الكـامل بالديار المصريـة كما تقدم ذكره، وكان الملـك الكامل يؤثـر تمليكه حماة، لكن الملـك الأشرف غير مجيب إلى ذلـك لانتماء الملك النـاصر صـاحـب حماة إليـه، وجـرى بين الكـامـل والأشرف في ذلـك

مراجعات كثيرة آخرها أنهما اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر، فتسلمها الملك المظفر، وأرسل إليها وهو بمصر نائبا من جهته حسام الدين أبا علي ابن محمد بن علي الهذباني، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة، وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر، واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب، وعمره يومئذ عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب، وأركب الملك العزيز في دست السلطنة، وفي هذه السنة لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب، اتفق مع الملك الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرا وهدمها إلى الأرض.....

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها، وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدا يصلح لذلك، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي من بيت كبير مشهور، فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر فأمر ولده فتنصر، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها في الفراش، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته في بعض القلاع، ثم أحضرت رجلين كانا قد وصفا لها بحسن الصورة فتزوجت أحدهما ثم فارقته، وأحضرت انسانا من كنجة مسلما وهويته وسألته ان يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك، وتردد الرسل بينهما في ذلك مدة فلم يجبها إلى التنصر.....

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عصيان المظفر غازي بن العادل على أخيه الملك الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازي بخلاط، وهي مملكة عظيمة،وهي إقليم أرمينية وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، كما قدمنا ذكره، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الملك الأشرف، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك، وخالف أخاه الملك الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الملك الأشرف، فسار مظفر الدين صاحب إربل وحصر الموصل عشرة أيام، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل، وسار إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي، فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل، فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي البلاد منه، وكان استيلاء الملك الأشرف على خلاط، وأخذها من أخيه في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين يوسف

في هذه السنة توفي الملك الأفضل المذكور، وليس بيده غير سميساط فقط، وكان موته فجأة وعمره سبع وخمسون سنة، وكان الملك الأفضل فاضلا حسن السيرة، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، وكان مع ذلك قليل الحظ، وله الأشعار الحسنة فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله:

يامن يسود شعره بخضابه
لعساة من أهل الشبيبة يحصل
هافاختضب بسواد حظي مرة
ولك الأمان بأنه لاينصل

ولما أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابا منه: أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك:

أي صديق سألت عنه ففي الذ
ل وتحت الخمول في الوطن
وأي ضد سألت حالته
سمعت مالا تحبه أذني

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفي أول شوال من هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة وعمي في آخر عمره، وكان موته بالدوسنطاريا، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن

المستضىء حسن ابن المستنجد يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير اسحق ابن المقتدر جعفر ابن المكتفي علي ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق—قيل اسمه طلحة وقيل محمد— ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما لهم خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا انسانا واحدا يقال له ابن السفت وهرب من بغداد إلى الشام، وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ماكان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق.

ذكر خلافة ابنه الظاهر

وهو خامس ثلاثينهم ولما توفي الإمام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، فأظهر العدل، وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين وظهر للناس، وكان الناصر ومن قبله لايظهرون إلا نادرا، ولم تطل مدته في الخلافة غير تسعة أشهر.....

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق، ونازل حمص، وكان قد اتفق مع جلال الدين ابن خوارزم شاه ومع مظفر

الـدين صـاحب إربـل على أن يكونـوا يدا واحـدة، وكان الملـك الأشرف ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عـن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيلـه وخيل عسكـره، وورد عليه أخـوه الملك الأشرف طلبـا للصلح وقطعا للفتـن فبقي مكـرما ظاهـرا، وهو في الباطـن كالأسير معـه، وأقام الملك الأشرف عنـد أخيه المعظم إلى أن انقضـت هذه السنة، وأمـا الملك الكامـل فإنه كـان بمصر وقد تخيـل من بعض عسكـره فما أمكنه الخروج عنها.

وفي هذه السنـة فتح السلطان جـلال الديـن تفليس من الكـرج وهي من المدن العظـام، وفي هذه السنة سار جـلال الدين ونازل خـلاط وهي منازلته الأولى، فطـال القتال بينهم وكان نـائب الأشرف بخلاط الحاجب حسـام الديـن علي الموصلي، وكان نـزولـه عليها ثـالث عشر ذي القعـدة ورحل عنها لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفي رابـع عشر رجب مـن هذه السنـة توفي الخليفـة الظاهـر بأمـر الله محمد بن الناصر لـدين الله، وكان متواضعا محسنا إلى الـرعية جدا، وأبطل عدة مظالم، منهـا أنه كان بخزانة الخليفـة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بـالصنجة التي يتعامـل بها الناس، وكان زيادة الصنجـة في كل دينار حبـة، فخرج توقيـع الظاهر بـإبطال ذلك وأولـه: (ويل للمطففين. الـذيـن إذا اكتـالـوا على النـاس يستوفـون. وإذا كـالـوهـم أو وزنـوهـم يخسرون)(المطففون ١—٣) وعمـل صنجه المخزن مثـل صنجة المسلمين، وكان مضـادا لأبيه الناصر في كثير مـن أحواله منهـا أن مدة خلافـة أبيه كـانت طـويلة، ومـدة خلافتـه كانـت قصيرة، وكان أبـوه متشيعا، وكـان الظاهر سنيا، وكـان أبوه ظالما جماعا للمال، وكان الظاهـر في غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء.

ذكر خلافة المستنصر

وهو سادس ثلاثينهم، ولما توفي الظاهر ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجي في غاية الشجاعة، وبقي حيا حتى أخذت التتر بغداد، وقتل مع من قتل، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك ابيه الظاهر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتقي صاحب آمد، فنزل كيقباذ بملطية وهي من بلاد كيقباذ، وأرسل عسكرا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا، وكانا لصاحب آمد المذكور.

وفيها في خامس عشر الحجة نازل جلال الدين مدينة خلاط وهي للملك الأشرف وبها نائبه حسام الدين علي الحاجب، وهي منازلته الثانية، وجرى بينهم قتال شديد، وأدركه البرد، فرحل عنها في السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك الكامل بديار مصر، وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران، وبعض بلاد الكرج، وعراق العجم وغيرها، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف، والرسل لاتنقطع بين المعظم وجلال الدين، والملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم، وأنه لاخلاص له منه إلا بإجابته إلى مايريد، أجابه كالمكره إلى ماطلبه منه، وحلف له أن

يعاضده، ويكون معه على أخيهما الملك الكامل، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم، فرحل الملك الأشرف في جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ماتقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، وكاتب الانبرطور ملك الفرنج في أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه، ووعد الانبرطور بأن يعطيه القدس، فسار الانبرطور إلى عكا، فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه، وفي هذه السنة انتزع الاتابك طغريل الشغر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعينتاب والراوندان.

وفيها سار الحاجب حسام الدين علي، نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على: خوي، وسلماس، ونقجوان.

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

في هـذه السنة في ذي القعـدة تـوفي الملك المعظـم عيسـى ابن الملـك العـادل أبي بكر بـن أيـوب بقلعة دمشـق بـالدوسنطـاريـا، وعمره تسـع وأربعـون سنـة، وكانـت مـدة ملكـه دمشـق تسع سنين وشهـورا، وكـان شجـاعـا، وكان عسكـره في غـايـة التجمـل، وكـان يجامل أخـاه الملـك الكامـل، ويخطب لـه ببلاده، ولايـذكر اسمـه معه، وكـان الملك المعظـم قليل التكلـف جدا في غـالب الأوقات لايـركب بالسنـاجق السلطـانية، وكان يـركب وعلى رأسه كلـوته صفراء بـلا شاش، ويتخرق الأسـواق من غير أن يطرق بين يـديه، كما جـرت عادة الملوك، ولما كثـر مثل هـذا منه صار الانسان إذا فعـل أمرا لايتكلف له يقـال قد فعله بالمعظمـي، وكان عالما فاضـلا في الفقه والنحو، وكان شيخـه في النحو تاج الديـن زيد بن الحسن الكنـدي، وفي الفقه جمال الديـن الحصيري، وكان حنفيـا متعصبا لمذهبـه، وخالـف جميع أهـل بيته فـإنهم كانـوا شافعيـة، ولما توفي الملـك المعظم تـرتب في مملكته وأعمالها بعـده ولده الملـك الناصر صلاح الـدين داود، وقام بتدبير مملكتـه مملوك والده وأستاذ داره الأمير عز الـدين أيبك المعظمي، وكان لأيبك المذكور صرخد.....

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنـة أرسل الملـك الكامـل، صاحـب مصر، يطلب مـن ابن أخيـه الملـك الناصر داود ابـن الملـك المعظـم صـاحب دمشـق حصـن الشوبـك، فلم يعطـه الملك النـاصر ذلك، ولاأجـابه إليـه، فسار الملـك الكـامـل من مصر في هـذه السنـة في رمضـان إلى الشام، ونـزل على تـل العجول بظاهر غزة، وولى على نابلس والقـدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه الملك النـاصر داود المذكور صاحب دمشـق حينئذ، وكان صحبـة الملك الكامـل الملك المظفر محمود بـن السلطان الملك المنصور صـاحب حماة،

وهـو موعـود من الملـك الكامـل انه ينتـزع حماة من أخيـه الناصر قليـج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه.

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملـك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق استنجد الناصر داود بعمه الملـك الأشرف، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقيـة، فقدم الملـك الأشرف إلى دمشـق، ودخـل هو والنـاصر داود إلى قلعة دمشق راكبين.

قال القـاضي جمال الديـن ابن واصـل: كنت إذ ذاك حـاضرا بدمشـق ورأيـت الملـك الأشرف راكبـا مع ابـن أخيـه، وعلى رأس الملـك الأشرف شـاش علـم كبير، ووسطـه مشدود بمنـديـل، وكـان وصـول الأشرف إلى دمشق في العشر الأخير مـن رمضان من هـذه السنة، ووصل إلى خـدمته بدمشق الملك المجاهد شيركـوه، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف، ثـم وقـع الاتفـاق أن يسير الناصر داود وشيركـوه مـع الملـك الأشرف إلى نـابلس، فيقيـم الناصر داود بنـابلـس، ويتوجـه الملك الأشرف إلى أخيـه الكامل إلى غزة شافعا في ابـن أخيهما الناصر داود، ففعلوا ذلك ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكـامل وقع اتفاقهما في الباطـن على أخذ دمشق من ابـن أخيهما الناصر داود وتعويضـه عنها، بحران والـرها، والرقـة، من بـلاد الملك الأشرف، وأن تستقـر دمشق للملـك الأشرف، ويكون لـه إلى عقبة أفيـق، وماعـدا ذلك مـن بلاد دمشـق يكون للملـك الكامـل، وان تنتزع حماة مـن الملك الناصر قليج أرسـلان وتعطى للملك المظفـر محمود ابن الملك المنصور وأن تنتزع سلمية من المظفـر محمود، وكانت اقطاعه لما كان مقيما بمصر عنـد الملك الكـامل، وتعطـى لشيركوه صـاحب حمص، وخرجـت السنة والأشرف عند أخيـه الكامل بظـاهر غزة، وقـد اتفقا على ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة عاود التتر إلى قصد البلاد التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر للتتر.

وفيها قدم الانمبرطور إلى عكا بجموعه، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الانمبرطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل، ولما وصل الانمبرطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب، فعمر الفرنج سورها، واستولوا عليها، والانمبرطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية، وإنما اسم الانمبرطور المذكور فرديك، وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد انبولية والانبردية.

قال القاضي جمال الدين بن واصل: لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولا من الملك الظاهر بيبرس الصالحي إلى الانمبرطور ملك تلك البلاد، قال: وكان الانمبرطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية، وغالب أهلها مسلمون، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الانمبرطور إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة.....

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود، وبلغ الناصر داود ذلك، وهو

بنابلس، فرحل إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ماأمر به عمه الملك الكامل، وأنه لايمكنه الخروج عن مرسومه، فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك، وسار إلى دمشق، وسار الأشرف في أثره، وحصره بدمشق، والملك الكامل مشتغل بمراسلة الانمبرطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا، ولايعمرها الفرنج، ولايتعرضوا إلى قبة الصخرة، ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، ويكون لهم من القرايا ماهو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، ووقع الاتفاق على ذلك، وتحالفا عليه وتسلم الانمبرطور القدس في هذه السنة في ر بيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق، وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل، فأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه بذلك، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي، واعظا وله قبول عند الناس، فأمره الناصر داود بعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وماحل بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج، ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما، ومن جملة ماأنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي وهو:

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم.

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الانمبرطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق، ووصل إليها في جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد الحصار على دمشق، ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب، وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون

التي هي من الست السوداء أم ولده أبي بكر العادل بن الكامل، ثم استولى الملك الكامل على دمشق، وعوض الناصر داود عنها: بالكرك، والبلقاء، والصلت، والأغوار، والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر، وهي: حران، والرها، وغيرهما التي كانت بيد الملك الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها، وتسلم دمشق الملك الأشرف، وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة.....

ذكر القبض على الحاجب علي نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفي، وهو أكبر أمير عنده، إلى خلاط فقبض على الحاجب علي الموصلي وحبسه ثم قتله، وكان حسام الدين علي الحاجب المذكور، من أهل الموصل، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخلاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد، واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ماتقدم ذكره، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف، بنى الخان الذي بين حران ونصيبين، وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق، وهو الخان المعروف بخان بريج العطش، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل استاذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خلاط على ماسنذكره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور، فقتله وأخذ بثأر استاذه.

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، سار من دمشق ونزل على مجمع المروج، ثم نزل سلمية، وأرسل عسكرا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان، وكان فيه جبن، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضا كثيرا لأجابه الملك الكامل إليه، ولكنه خاف، وكان في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص، فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه: إني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرني عند السلطان الملك الكامل، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفرتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل، وهو نازل على سلمية فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر السلطان الملك الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، وقالوا للملك الكامل لانسلم حماة لغير أحد من أولاد تقي الدين، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماة، وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملي، فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا ووعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التي عينوها ففتحوا له باب النصر،ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الاكرام داخل باب المغار، وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية، وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور،

وحضر أهل حماة وهنؤوا الملك المظفر بملك حماة، وكان ذلك في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين، وأقام الملك المظفر في دار الإكرام يومين، وصعد في اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة، وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة، ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين علي الهذباني، وكان سيف الدين علي ابن أبي علي المذكور، قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبي علي الذي كان نائب الملك المظفر بسلمية، لما سلمت إليه وهو بمصر، عند الملك الكامل، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبي علي وحشة، ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وحظي عنده وصار استاذ داره، وخدم ابن عمه سيف الدين علي المذكور الملك المظفر ، وكان يقول له: اشتهى أراك صاحب حماة، وأكون بعين واحدة فأصيبت عين سيف الدين علي على حصار حماة لما نازلها عسكر الملك الكامل، وبقي بفرد عين، فحظي عند الملك المظفر لذلك، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره.

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة انتزع الملك الكامل سلمية منه، وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص على ماكان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطى أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكمالها، فامتثل ذلك، وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعرة، وكان بحماة تقدير أربعمائة ألف درهم للملك الناصر، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطي المال المذكور أخاه الملك الناصر، فماطل المظفر في ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شيء، ولما استقر

الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصاري الدمشقي بقصيدة من جملتها:

تناهى إليك الملك واشتد كاهله
وحل بك الراجي فحطت رواحله
ترحلت عن مصر فأمحل ربعها
ولما حللت الشام روض مواحله
وعززت حماة في حمى أنت غابه
بصولته تحمي كليب ووائله
وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج
يخيب مرجيه ويحرم سائله

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة، رحل الملك الكامل عن سلمية إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضا عن دمشق، فنظر في مصالحها، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك الكامل وهو بالشرق، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية خاتون بنت الملك الكامل، وهي شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن، وهي والدة الملك المنصور صاحب حماة، وأخيه الملك الأفضل نور الدين علي ابني الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل، وكان يتمنى ذلك لما كان بالديار المصرية، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له الزكي القومصي، فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكي القومصي:

متى أراك كما أهوى وأنت ومن
تهوى كأنكما روحان في بدن
هناك أنشد والأقدار مصغية
هنيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر: إن صار ذلك يازكي أعطيتك ألف دينار

مصرية، فلما ملك الملك المظفر حماة أعطى الزكي ماوعده به، ولما فرغ الملك الكامل من تقرير أمر البلاد الشرقية وهي: حران ومامعها من البلاد مثل: رأس عين، والرها، وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية.

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف أخاه صاحب بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك، وبها صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب واستمر الحصار عليه.

وفيها سار جلال الدين ملك الخوارزمية وحاصر خلاط وبها أيبك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر عمارة شميميس

في هذه السنة شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس، وكان لما سلم إليه الملك الكامل سلمية قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة، فأذن له بذلك، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك، ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة سلم الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصار عليه، وعوضه الملك الأشرف عنها الزبداني وقصير دمشق الذي هو شماليها ومواضع أخر،

وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة، وهي التي ينزلها النواب.

ذكر مقتل الملك الأمجد

لما أخذ منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه في مرقد عنده بالدار، وجلس الملك الأمجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به استاذه الملك الأمجد فقتله، ثم طلع المملوك الى سطح الدار وألقى نفسه الى وسطها فمات، ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التي على الشرف، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما مات أبوه فرخشاه، وانتزعت منه هذه السنة فذلك خمسون سنة إلا سنة، وكان الملك الأمجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

ذكر ملك جلال الدين خلاط

في هذه السنة لما طال حصار جلال الدين على خلاط واشتد مضايقتها هجمها بالسيف، وفعل في أهلها مايفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها، وهو مملوكه أيبك، وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب علي الموصلي، فقتله وأخذ بثأر أستاذه.

ذكر كسرة جلال الدين من الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ماجرى من أخذ خلاط اتفق صاحب الروم كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار إلى سيواس، واجتمع

فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقباذ المذكور، وسار إلى جهة خلاط والتقى الفريقان في التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة، فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رؤوس جبال كانت في طريقهم، وضعف جلال الدين بعدها، وقويت عليه التتر، وارتجع الملك الأشرف خلاط وهي خراب يباب، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباذ وجلال الدين وتصالحوا وتحالفوا على ماباًيديهم، وأن لايتعرض أحد منهم إلى مابيد الآخر.

وفي هذه السنة استولى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر، وهي غير أرزن الروم، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم في الملك، فأخذها منه الملك المظفر غازي المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حاني، وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحدب، وأرزن لم تزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقي إلى الآن فسبحان من لايزول ملكه.

وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة، فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاهم عند قرية بين حماة وبارين يقال لها لفيون، وكسرهم كسرة عظيمة، ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدا منصورا.

وفيها ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

والسلطان الملك الكامل بديار مصر، وأخوه الملك الأشرف بدمشق في ملاذه، وقد تخلى عن البلاد الشرقية، فإن حران ومامعها صارت لأخيه الملك الكامل ، وخلاط صارت خرابا يبابا، ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر، فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ، وفيها سار الملك الأشرف من

دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بالديار المصرية متنزها.

ذكر قصد التتر بلاد الاسلام

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد بلاد الاسلام، وسفكوا وخربوا مثل ماتقدم ذكره، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته، وسوء تدبيره، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف، وعادى الجميع، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله، وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة، واتفق موت ذلك المملوك، فحزن عليه حزنا شديدا لم يسمع بمثله، وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر احد أن يتفوه أنه ميت، فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول: إني الآن أصلح مما كنت، فأنف أمراؤه من ذلك، وخرج بعضهم عن طاعته، فضعف امر جلال الدين لذلك ولكسرته من الملك الأشرف، فتمكنت التتر من البلاد، واستولوا على مراغة، وهو استيلاؤهم الثاني.

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان، سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجىء إليه، ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم، فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه، فهرب جلال الدين وقتل على مانشرحه إن شاء الله تعالى، ولما قتل تمكنت التتر من البلاد، وساقوا حتى وصلوا في هذه السنة إلى الفرات، واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات ، ثم شنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة، وفعلوا من القتل والتخريب مثل ماتقدم.....

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية، والملك المظفر بحماة مالكها ومعها المعرة، وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببارين مالكها، والعزيز محمد بن الظاهر غازي قد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بلاد العجم كلها، والخليفة المستنصر بالعراق، ثم ارتحل في هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية، فسار الملك الكامل إلى الشوبك واحتفل له الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب احتفالا عظيما بالضيافات والاقامات والتقادم، وحصل بينهما الاتحاد التام، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك، وهي منزلة الحجاج،في العشر الأخير من شعبان هذه السنة ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقيا، وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق، واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعل نائبه بمصر ولده وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ثم سار الملك الكامل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، ثم سار الملك الكامل ونزل سلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم، ثم سار بهم إلى آمد وحصرها، وتسلمها من صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق، ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذي ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس، وكان له عجوز قوادة يقال لها الازاء، تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر، ونساء الملوك، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ومن جملة معاقلها حصن كيفا وهو في غاية الحصانة، أحسن الملك الكامل إلى

الملك المسعود وأعطاه اقطاعات جليلة بديار مصر، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل، فخرج من الاعتقال، واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة، ثم سافر الملك المسعود المذكور الى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه، ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته، وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وجعل معه شمس الدين صواب العادلي، وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر في هذه السنة خرج صحبته بنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب، وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل، وحملت كل منهما إلى بعلها، واحتفل لدخولهما بحماة وحلب.....

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها، وسار إلى ديار مصر، ورجع كل ملك إلى بلده.

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور واخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي، ثم اعتقل الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك، وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من الملك الصالح اسماعيل، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين، وصاروا من أكبر أمرائه، وكانت شيزر

اقطاع سابق الدين المذكور، فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها خمارتكين، ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات، وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر، وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعدا له، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز، ونزل إلى خدمته، فتسلمها في هذه السنة، وهنى الملك العزيز يحيى بن خالد بن القيسراني بقوله:

يا مالكا عم أهل الأرض نائله
وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصرك في
أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

ثم ولى الملك العزيز على شيزر، وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة، ورحل كل منهما إلى بلده.

وفي هذه السنة استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل في انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج، لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم، فأذن الملك الكامل له في ذلك، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله في الاقامة عنده بحماة فامتنع، وسار إلى مصر، فبذل له الملك الكامل اقطاعا جليلا وأطلق له أملاك جده بدمشق، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور في الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة، قبل موت الملك الكامل بأيام.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة توفي مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين علي كجك، وقد تقدم ذكر ملكه إربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين علي في سنة ست وثمانين وخمسمائة، لما كانا في خدمة السلطان صلاح الدين في الجهاد بالساحل، فبقي مالكها من تلك السنة إلى هذه السنة، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بإربل وبلادها للخليفة المستنصر، فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور، وكان مظفر الدين ملكا شجاعا وفيه عسف في استخراج الأموال من الرعية، وكان يحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وينفق فيه الأموال الجليلة.

وفيها في شعبان توفي الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ونشأ بها ثم سار إلى الموصل مع والده وأخوته، وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي، ومن في طبقته، وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته للتوفر على العلم، وكان إماما في علم الحديث، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بأنساب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتابا كبيرا سماه الكامل، وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات، واختصر كتاب الانساب للسمعاني وهو الموجود في أيدي الناس دون كتاب السمعاني، وورد إلى حلب في سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشي طغريل الأتابك بحلب، فأكرمه إكراما زائدا، ثم سافر إلى

دمشق سنة سبع وعشرين، ثم عاد إلى حلب في سنة ثمان وعشرين، ثم توجه إلى الموصل فتوفي بها في التاريخ المذكور، ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر، وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه.

ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في المحرم توفي شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقباذ ملك بلاد الروم

في هذه السنة وقع من كيقباذ بن كيخسرو، ملك بلاد الروم التعرض إلى بلاد خلاط، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر، واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته، ونزل شمالي سلمية في شهر رمضان من هذه السنة، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق في حدود بلد الروم، وقد ضرب في عسكره ستة عشر دهليزا، لستة عشر ملكا في خدمته منهم أخوته: الملك الأشرف موسى صاحب دمشق، والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح اسماعيل أولاد الملك العادل، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين ، كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل، والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين، وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب سميساط ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل علي، والملك المظفر محمود صاحب حماة

ابـن الملك المنصـور محمد، والملـك الصالـح أحمد صاحـب عينتاب ابـن الملك الظاهـر صاحب حلب، والملـك الناصر داود صاحب الكـرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، والملـك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابـن محمد بـن شيركـوه، وكان قـد حفظ كيقبـاذ ملـك بلاد الـروم الدربندات بالرجال والمقاتلة، فلـم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم مـن جهة النهـر الأزرق، وأرسل بعـض العسكر إلى حصـن منصور وهو مـن بلاد كيقباذ فهدمـوه، ورحل السلطان وقطع الفـرات، وسار إلى السويـدا، وقدم جـاسته تقـدير ألفين وخمسمائة فـارس مع الملـك المظفر صاحـب حماة، فسار الملـك المظفر بهم إلى خـرتبرت، وسار كيقبـاذ ملك الـروم إليهـم واقتتلـوا فانهزم العسكـر الكـاملي، وانحصر الملـك المظفـر صاحب حماة في خرتبرت مع جملة مـن العسكر، وجد كيقباذ في حصارهم والملـك الكامـل بـالسويـدا، وقد أحـس مـن الملوك الـذيـن في خدمتـه بالمخـامرة والتقاعـد، فإن شيركوه صـاحب حمص سعى إليهـم، وقال إن السلطان ذكـر أنه متـى ملك بـلاد الروم فرقها على الملـوك من أهـل بيته عوض مـابأيـدهم مـن الشام، ويأخـذ الشام جميعـه لينفرد بملـك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتـال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامـل بذلك، فما أمكنه التحرك إلى قتـال كيقباذ لذلك ودام الحصـار على الملك المظفر صاحب حماة، فطلب الأمان فأمنه كيقباذ، ونـزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباذ وخلع عليه ونـادمه وتسلم كيقباذ خرتبرت وأخذهـا من صاحبها، وكان مـن الأرتقية قـرايب أصحـاب ماردين، وكان قـد دخل في طـاعة الملـك الكامـل، وصارت خـرتبرت من بـلاد كيقباذ، وكـان نزول المظفـر صاحـب حماة من خرتبرت يوم الأحـد لسبع بقين من ذي القعـدة، وأقام عند كيقباذ يومين، ثم أطلقه وسـار من عنده لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنـة، أعني سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ووصـل بمن معه إلى الملك الكامل وهـو بالسويدا من بلاد آمد ففرح بـه، وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صـاحب الكرك، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود، وأثبت الملك الكامل طلاقها منه.

وفي هذه السنة استتم بناء قلعة المعرة، وكان قد أشار سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني على الملك المظفر صاحب حماة ببنائها، فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ولم يكن ذلك مصلحة، لأن الحلبيين حاصروها فيما بعد، وأخذوها وخربت المعرة بسببها.....

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذي حصل في عسكره ، ثم رحل وعاد إلى مصر، وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده.

وفيها: توفي الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين ، وكان قد مرض في العسكر الكاملي، فحمل إلى البيرة مريضا وتوفي بها، وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين بن شداد في صفر، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة، وصحب السلطان صلاح الدين وكان قاضي عسكره، ولما توفي صلاح الدين كان عمر القاضي المذكور نحو خمسين سنة، ونال القاضي بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل مالم ينلها أحد، ولم يكن في آبائه من اسمه شداد، بل لعل ذلك في نسب أمه فاشتهر به، وغلب عليه، وأصله من الموصل، وكان فاضلا دينا، وكان اقطاعة على الملك العزيز مايزيد على مائة ألف درهم في السنة.

وفيها: لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه

السنة، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فتضاعف السرور بقدوم الوالد والولد، قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة في ذلك فمنها:

غدا الملك محروس الذرى والقواعد
باشرف مولود لاشرف والد
حبينا به يوم الخميس كأنه
خميس بدا للناس في شخص واحد
وسميته باسم النبي محمد
وجدينه فاستوفى جميع المحامد

أي باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته، والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده ومنها:

كأنى به في سدة الملك جالسا
وقد ساد في أوصافه كل سائد
ووافاك من أبنائه وبينهم
بأنجم سعد نورها غير خامد
إلا أيها الملك المظفر دعوتي
ستوري بها زندي ويشتد ساعدي
هنيئا لك الملك الذي بقدومه
ترحل عنا كل هم معاود

وفيها: لما تفرقت العساكر الكاملية قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما وكانا للسلطان الملك الكامل.

وفيها: توفي بالقاهرة القاسم بن عمر بن علي الحموي، المصري الدار،

المعروف بابـن الفارض، وله أشعار جيـدة منها قصيدته التـي عملها على طريقة الفقراء وهي مقدار ستمائة بيت.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

في هـذه السنـة سـار النـاصر داود مـن الكـرك إلى بغـداد ملتجئـا إلى الخليفة المستنصر، لما حصـل عنده مـن الخوف من عمـه الملك الكـامل، وقدم إلى الخليفـة تحفا عظيمة وجواهـر نفيسة، فأكرمـه الخليفة المستنصر، وخلع عليه وعلى أصحـابه، وكان الناصر داود يظـن أن الخليفة يستحضره في ملأ من الناس، كما استحضر مظفر الديـن صاحب إربل، فلم يحصل له ذلك، وألح في طلب ذلك من الخليفة، فلم يجبه.....

وكان الخليفة متـوقفا على استحضار داود رعاية لخاطر الملـك الكامل، فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلا، ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك.

وفي هـذه السنة: سـار السلطـان الملك الكـامـل من مصر إلى البـلاد الشرقيـة، واسترجع حـران والـرها مـن يـد كيقباذ صـاحـب بلاد الـروم، وأمسك أجناد كيقباذ ونـوابه الذين كانوا بهما وقيـدهم وأرسلهم إلى مصر، فلم يستحسـن ذلك منه، ثـم عاد الملك الكـامل إلى دمشق، وأقـام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة.....

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفي هذه السنـة كان قد خـرج الملك العزيز محمـد ابن الملك الظـاهر

غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق، واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى، واشتد مرضه وتوفي في ربيع الأول من هذه السنة، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة وشهورا، وكان حسن السيرة في رعيته، ولما توفي تقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد، وعمره نحو سبع سنين، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرمني، وعز الدين عمر بن مجلي، وجمال الدولة إقبال الخاتوني والمرجع في الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم، وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق.

وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف، وكان ابتداؤها مافعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم، فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل،ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه، فقدم خوفا من ذلك إلى دمشق، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم، واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إن خرج من مصر، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك: إنك إن وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق، وزوجتك بابنتي، فلم يوافقه الناصر على ذلك لسوء حظه، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل، وصار معه على ملوك الشام، فسر به الملك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التي طلقها منه، وأركب الناصر داود بسناجق

السلطنة ووعده انه ينتزع دمشق من الملك الأشرف أخيه ويعطيه إياها، وأمر الملك الكامل أمراء مصر وولده الملك العادل أبا بكر ابن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدي الملك الناصر داود، وبالغ في إكرامه.

وفي هذه السنة توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز، فحاصروا بغراس، وكان قد عمرها الداوية بعد مافتحها السلطان صلاح الدين وخربها، وأشرف عسكر حلب على أخذها، ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دربساك، وهي حينئذ لصاحب حلب، فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين، وكثر فيهم القتل والأسر، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج، وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع.

وفي هذه السنة استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وهو بالبلاد الشرقية، وهي: آمد، وحصن كيفا، وحران وغيرها نائبا عن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي، فإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباذ ملك بلاد الروم وخدموا عنده، وكان فيهم عدة مقدمين مثل بركة خان وكشلوخان وصاروخان، وفرخان، وبردي خان، فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسرو قبض على بركة خان وهو أكبر مقدميهم، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته، وساروا عن الروم، ونهبوا ماكان على طريقهم، فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، واستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له واستخدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

وقد استحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف، وقد لحق الملك الأشرف الذرب، وضعف بسببه، وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى.

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفي في المحرم من هذه السنة، وتملك دمشق أخوه الصالح اسماعيل بعهد منه، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورا وعمره نحو ستين سنة، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، وكان سعيدا، ويتفق له أشياء خارقة للعقل، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورا ومنتزهات حسنة، وكان منهمكا في اللذات وسماع الأغاني، فلما مرض أقلع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى ان توفي ودفن في تربته بجانب الجامع، ولم يخلف من الأولاد إلا بنتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل، بعد ماكان بينهما من المصافاة، أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها، وكانت لاتفي بما يحتاجه وما يبذله، وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق، وأيضا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزده منها شيئا، وأيضا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام، وينتزع دمشق منه، فتغير بسبب ذلك.

ولما استقر الملك الصالح اسماعيل في ملك دمشق، كتب إلى الملوك من أهله، وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل، فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماؤه إليه، وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفا منه، فقبل الملك الكامل عذره، وتحقق صدق ولائه، ووعده بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ومايتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك، وهو لايشك ان الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما، وأما الملك الصالح اسماعيل فإنه استعد للحصار، ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص، ونازل الملك الكامل دمشق، وأخرج الملك الصالح اسماعيل النفاطين فأحرق العقيبة جميعها ومابها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون علي خمسين رجلا، نجدة للصالح اسماعيل، وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسلمية، فتسلمها الملك المظفر، واستقرت نوابه بها، وكان نزول الملك الكامل على دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة في قوة الشتاء، ثم سلم الملك الصالح اسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل، وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافا إلى بصرى، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي رسولا للتوفيق بين الملوك ، فتسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة، ونزل على الرستن، واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلن على الملك الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك، ثم بعد استقرار الملك الكامل في دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض، واشتد مرضه وكان سببه إنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام، فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورمت منها، وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته،

وعمره نحو ستين سنة وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعني سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة، وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة، فحكم في مصر نائبا وملكا نحو أربعين سنة، وأشبه حاله حال معاوية بن أبي سفيان، فإنه حكم في الشام نائبا نحو عشرين، وملكا نحو عشرين، وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما، حسن التدبير، وأمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه، واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفي الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها، فعمرت في أيامه ديار مصر أتم العمارة، وكان محبا للعلماء ومجالستهم، وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية، وتقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى، وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حموية من أكابر دولته، وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وأخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتي السيف والقلم، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش.

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك ،فاتفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر، فحلف له جميع العسكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق

وهددوه إن أقام، وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ، وبقي يباشر الأمور مع الملك الجواد.

ولما بلغ شيركوه صاحب حمص وفاة الملك الكامل فرح فرحا عظيما، وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به ، وأظهر سرورا عظيما ولعب بالكرة على خلاف العادة وهوفي عشر السبعين، وأما الملك المظفر صاحب حماة فإنه حزن لذلك حزنا عظيما، ورحل من الرستن، وعاد إلى حماة، وأقام فيها للعزاء، وأرسل صاحب حمص ارتجع سلمية من نواب الملك المظفر، وقطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماة فيبست بساتينها، ثم عزم على قطع النهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين، وذهب ماء العاصي في أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد له الماء مسلكا عاد فهدم ماعمله صاحب حمص، وجرى كما كان أولا، وكذلك كان قد حصل لصاحب حلب ولعسكرها الخوف من الملك الكامل، فلما بلغهم موته أمنوا من ذلك.

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة

ولما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة، ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم، ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر صاحب حماة، وحاصروا قلعتها وخرجت المعرة حينئذ عن ملك الملك المظفر صاحب حماة، ثم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة، ونازلوا حماة وبها صاحبها الملك المظفر، ونهب العسكر الحلبي بلاد حماة، واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب، وهي صغيرة حينئذ، وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضي دوقات، ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان، وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباذ المذكور، وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب.

وفيها خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل، ونهبوا البلاد.

وفيها سار لؤلؤ صاحب الموصل، وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار، فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية، وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته، واتقع مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فانهزم لؤلؤ وعسكره هزيمة قبيحة، وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئا كثيرا.

وفي هذه السنة جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك، وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين ونابلس، انتصر فيه الملك الجواد يونس، وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله.

وفي أواخر هذه السنة ولد والدي الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر صاحب حماة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

في هـذه السنة رحـل عسكر حلـب المحـاصر لحماة بعد مـولد الملـك الأفضل، وكان قد طـالت مدة حصارهم لحماة وضجروا، فتقـدمت إليهم ضيفة خـاتون صاحبة حلـب بنت الملك العادل بـالرحيل عنها فـرحلوا، وضاق الأمـر على الملك المظفـر في هذا الحصـار، وانفق فيـه أموالا كثيرة، واستمرت المعـرة في يد الحلبيين، وسلمية في يـد صاحـب حمص، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعريـن بسبب قلعتهـا، فتقدم بهدمهـا فهدمـت إلى الأرض في هذه السنة.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفي هـذه السنة في جمادى الآخـرة استـولى الملك الصـالـح أيوب ابـن السلطان الملك الكامل على دمشـق وأعمالها، بتسليم الملك الجواد يونس، وأخذ العوض عنهـا: سنجار، والرقة، وعـانة، وكان سبب ذلـك أن الملك العادل ابـن الملك الكامل صـاحب مصر لما علم باستيـلاء الملك الجواد على دمشق، أرسـل إليه عماد الـدين ابـن الشيخ لينتـزع دمشق منـه، وأن يعـوضه عنهـا إقطـاعا بمصر، فمال الجواد يـونـس إلى تسليمها إلى الملـك الصالـح حسبما ذكرناه، وجهـز على عماد الدين ابـن الشيخ من وقـف له بقصة، فلما أخذهـا عماد الدين منه ضربه ذلك الـرجل بسكين فقتله، ولما وصل الملك الصالـح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفـر صاحب حماة معاضدا له، وكان قد لاقاه إلى اثنـاء الطريق، واستقر الملك الصالح أيـوب المذكور في ملـك دمشـق، وسار الجواد يـونـس إلى البلاد الشرقيـة المذكورة فتسلمها.

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، وسأله الملك المظفر صاحب حماة في منازلة حمص وأخذها من شيركوه، فبرز إلى الثنية وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص،، فأرسل شيركوه مالا كثيرا وفرقه في الخوارزمية، فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية، ورحل صاحب حماة إلى حماة، ثم كر الملك الصالح عائداً إلى دمشق طالبا مصر، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان، ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين.

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح، وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه اسماعيل المذكور يتحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه،وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق، وأخذها من الصالح أيوب، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب، ووصل أيضا في هذه السنة محيي الدين ابن الجوزي رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولي على دمشق، وهذا محيي الدين هو الذي حضر ليصلح بين الكامل والأشرف، فاتفق أنه مات في حضوره في سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم: الملك الكامل صاحب مصر، وأخوه الأشرف صاحب دمشق، والعزيز صاحب حلب، وكيقباذ صاحب بلاد الروم، فقال في ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق:

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ
ـصور يا من له الفخار الانيل
ما جرى من رسولك الآن محيي الـ
ـدين في هذه البلاد قليل

جـــاء والأرض بـــالســـلاطين تـــزهـــى
وغـــدا والـــديـــار منهـــم طلـــول
أقفـــــر الـــــروم والشـــــآم، ومصر
أفهـــــذا مغســـــل أم رســـــول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في صفر سار الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما وهجموا دمشق، وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب،وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر، وكان قد بلغه سعي عمه اسماعيل في الباطن، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بأخبار الصالح صاحب بعلبك، وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه وسرق الحمام التي لنابلس، وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك، فصار الطبيب المذكور يكتب ان عمك اسماعيل قد جمع وهو في نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير ببعلبك فيأخذ الصالح اسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم إن عمك اسماعيل قد جمع ليعاضدك، وهو واصل إليك ويسرحه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم، ويترك مايرد إليه من غيره من الأخبار، واتفق أيضا ان الملك المظفر صاحب حماة علم بسعي الصالح اسماعيل صاحب بعلبك في أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها، فجهز نائبه سيف الدين علي بن أبي علي، ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم، وجهز معه من السلاح والمال شيئا كثيرا ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها، وأظهر الملك المظفر وابن أبي علي أنهما قد اختصما، وأن ابن أبي علي قد غضب،واجتمع معه هذه الجماعة وقد

قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج، كل ذلك خوفا من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي علي ويمنعه، فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة، ولما وصل ابن أبي علي إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي علي معه، وأرسل من استدعى باقي أصحاب ابن أبي علي إلى الضيافة فمنهم من سمع ودخل إلى حمص، ومنهم من هرب فسلم، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي علي وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين، واستولى على جميع ماكان معهم من السلاح والخزانة وبقي يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاها، ومات ابن أبي علي وغيره في حبسه بحمص، والذي سلم وبقي إلى بعد موت شيركوه خلص، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفا كثيرا.

وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه اسماعيل دمشق، رحل من نابلس إلى الغور، فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق، واعتقال ولده المغيث عمر، ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح اسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح الملك الصالح أيوب لايدري مايفعل ولاله موضع يقصده، فقصد نابلس، ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر داود بذلك، وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، وأمر بالقيام في خدمته بكل مايختاره، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقي أصحابه ومماليكه، ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة، ولماجرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود، فلم يسلمه الناصر داود، فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر بأخذ بلاده فلم يلتفت إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضا، فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة.

وفي هذه السنة توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة، لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، بعد موت أبيه محمد بن شيركوه، وكان عمره يومئذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان شيركوه المذكور عسوفا لرعيته، وملك حمص بعده ولده الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه.

وفي هذه السنة استولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار، وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل.

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفي هذه السنة في أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، واجتمعت عليه مماليكه، وكاتبه إليها زهير، وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة، وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول في يمينه أنه كان مكرها، ثم سارا إلى غزة، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك،

وبرز بعسكر مصر، ونـزل على بلبيس لقصد الناصر داود والصـالح أخيه، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشـام، وأن يستأصلهما فسار الصالح اسماعيل بعسـاكر دمشق، ونزل الفـوار، فبينما الناصر داود والصـالح أيـوب في هذه الشـدة وهما بين عسكـريـن قـد أحـاطـا بهما، إذ ركبـت جماعـة مـن المماليـك الأشرفيـة، ومقـدمهم أيبـك الأسمر، وأحـاطوا بـدهليـز الملك العـادل أبي بكر ابـن الملك الكامـل، وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليـه من يحفظه، وأرسلوا إلى الملـك الصالح أيـوب يستدعونه،فـأتاه فرج لم يسمـع بمثله، وسار الملـك الصالـح أيوب والملـك الناصر داود إلى مصر، وبقـي في كل يـوم يلتقي الملـك الصالـح فوج بعـد فـوج من الأمـراء والعسكر، وكـان القبض على الملك العـادل ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة مـن هذه السنة، فكانـت مدة ملكـه نحو سنتين، ودخـل الملك الصـالح أيـوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحـد لست بقين من الشهر المذكور، وزينت لـه البلاد وفرح الناس بمقدمـه، وحصل للملك المظفر صاحـب حماة من السرور والفرح بملـك الملك الصـالح مصر مـالا يمكـن شرحه، فـإنه مـازال على ولائه حتـى أنه لما أمسـك بالكـرك كان يخطـب له بحماة وبـلادها، ولما استقـر الملك الصـالح أيوب في ملـك مصر وصحبته الناصر داود، حصـل عند كـل واحد منهما استشعـار من صـاحبه، وخـاف الناصر داود ان يقبـض عليه، فطلب دستورا، وتوجه إلى بلاده الكرك وغيرها.

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنـة، وقيل في سنـة ست وثـلاثين، توفي نـاصر الديـن أرتق أرسلان بن ايلغـازي ابن البي بن تمرتـاش بن ايلغازي بن أرتـق صاحب ماردين، وكان يلقـب الملك المنصور، وملـك المذكور مـاردين بعـد أخيه حسام الـدين يـولق أرسـلان حسبما تقدم ذكـره في سنة ثمانين وخمسمائة، وبقـي أرتق أرسـلان متغلبا عليـه مملوك والـده البقش حتـى قتله أرتـق

أرسلان في سنة إحدى وستمائة، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين حتى توفي في هذه السنة، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان المذكور حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده في السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازي بن أرتق أرسلان، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود بن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر، ثم توفي وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم رجل من ماردين ذكر فيه تواريخ بني أرتق، ولم أتحقق صحة ذلك، وسنذكر في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره في ملك مصر على أيبك الأسمر، مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه، وأودعهم الحبوس، وأخذ في إنشاء مماليكه، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور من هذه السنة في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكنا لنفسه.

وفيها نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب عن قلعة جعبر، وبالس، وسلمهما إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب، وتسلم عوض ذلك أعزاز وبلادا معها تساوي مانزل عنه، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج، وخشي من أولاده،

وتغلبهم عليه، ففعل ذلك لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لايمكنهم التعرض إليه.

وفي هذه السنة كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور، واستولى الخوارزميون على أثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه منهم بماله، فأخذوا بذلك شيئا كثيرا، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان، وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب، وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب، واستعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب مثل ماتقدم ذكره، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران ومامعها، بعد أن أخربوا بلد حلب.

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران، وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول، ثم إلى تل اعزاز، ثم سرمين، ثم إلى المعرة وهم ينهبون مايجدونه، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم، وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية، واستمرت الخوارزمية على ماهم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل